الأسرة ودورها في بناء الفرد والمجتمع
أسرة إبراهيم- عليه السلام- نموذجاً
دراسة موضوعية

د/ رشا بسيوني يوسف الدسوقي

مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ

من ٤٩٥ إلى ٦٠٤

_الأسرة ودورها في بناء الفرد والمجتمع
أسرة إبراهيم– عليه السلام– نموذجًا دراسة موضوعية

رشا بسيوني يوسف الدسوقي
قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم،كلية الدراسات الإسلامية العربية للبنات بكفر الشيخ ،جامعة الأزهر ، مصر
البريد الألكتروني:mhmoudelsayed45@yahoo.com

ملخص البحث

يناقش هذا البحث قضية مهمة ، وهي: الأسرة ودورها في بناء الفرد والمجتمع ،وذلك بتسليط الضوء على نموذج أسري قرآني فريد ، (أسرة إبراهيم – عليه السلام)، وبيان الأثر الذي يمكن أن يحدثه الاقتداء بمثل هذا النموذج الأسري في إرساء دعائم الأسرة واستقرار أحوالها، باعتبارها أحد أهم أركان المجتمع ولبنته الأصيلة التي يتكون منها، وكيف يمكن الاستفادة من المواقف التربوية الرائعة في أسرة إبراهيم – عليه السلام– وكيفية – تعامل إبراهيم – عليه السلام– مع الكثير من المشكلات التي تعرضت لها أسرته، وذلك من خلال تعامله مع أبيه، وتعهده لأبنائه بالرعاية، وعلاقته بزوجاته، وطريقة معاملته لذوي قرابته وأرحامه، ومدى العناية بضيوفه – عليه السلام – كل ذلك في ملحمة تربوية فريدة ناجحة، استحق بها إبراهيم –عليه السلام– أن يخلد الله –تعالى– ذكر أسرته في القرآن الكريم، وأن يجعلها مثالًا حيًا لمن أراد أن ينشئ أسرته على تقوى من الله –تعالى–،وتوصلت من خلال هذا البحث إلى الكثير من النتائج الهامة منها:

١. الصور الأسرية التي عرضها القرآن الكريم(متمثلة في أسرة إبراهيم عليه السلام) كنموذج أسري فريد ، تؤكد أن قرار تكوين الأسرة لابد من أن يكون قائما على النهج الرباني خروجًا من الفردية التي يمكن أن تسيطر على الإنسان.

٢. الأسرة أقوى المؤسسات المؤثرة في سلوكيات الفرد، فهي التي تتولى تكوين شخصيته، وتوجيه سلوكه.

٣. أهمية الحوار في تنشئة الأطفال تنشئة تربوية سليمة .

٤. أهمية الدور الاجتماعي للأسرة في إرشاد المجتمع ، بنشر فضائل الأخلاق ، ومحاربة الرذائل.

وختم البحث بأهم النتائج ، وفهرس المصادر.

كلمات مفتاحية : الأسرة– القرآن– بناء– الفرد– المجتمع.

The family and its role in building the individual and societyIbrahim's family - peace be upon him - an objective study model

Rasha Bassiouni Youssef Al-Desouki
Department of Interpretation and Sciences of the Holy Quran, Faculty of Arab Islamic Studies for Girls, Kafr Al-Sheikh, Al-Azhar University, Egypt.
E-mail: mhmoudelsayed45@yahoo.com

Summary of the searching

Discusses the searching raved important , case weak: The family and rotary her in builder of the individual and the society, and that in mastery of the light on example rejoices in Quran , (of family of Ibrahim – is peace be upon him), and statement favored who be possible to happens him the imitating in identicals one important of pillars raved the hostage example in establishment of supporting her the family and her , stability of situations in considering gathered and for his authentic girl which is formed from her , and how the educational use from the situations be possible the masterpiece in family 'ibrhym – peace be upon him - and despotic – dealing of Ibrahim – is peace be upon him - with a lot of formative which be exposed to him captured him , and situations from her, and your lowness through his dealing with his , fathers and his commitment for his sons, and his relationship in his wives, and his method of treatment to decaying of relationship his and his uteri, and extensions of the care in his – guests peace be upon him all that in educational butchery unique successful, deserved in her Ibrahim is peace be upon him to Allah immortalizes - rose - memory captured him in the generous , Quran and to makes her live examples blamed explores to establishes Captured him on piety from Allah - rose -, and continued through the searching raved to a lot of the important results from her:

1-The familian images which expanded her the generous Quran (represented in family Ibrahim is peace be upon him) as example , make sure that decision forming of the family to shows from that is upright on the panting rabbinic exit from individual which be possible to the human dominates on.

2-The family strengthens the influential organizations behaviorisms of the individual, so she which forming of personality assumes his, and his orientation of behavior

3-Importance of the dialogue in raising of the children raising of educational sound.

4- Social importance the role for the family in guidance gathered , in spreading virtuous persons of the characters , and fighter The bad characters.

Keywords: Family, Quran, Building, Individual, Society.

المقدمة

الحمد لله الكريم المنان، منَّ علينا بنعمة القرآن، وجعله قائدًا للجِنَان، والصلاة والسلام على خير الأنام، مصباح الظلام سيدنا محمد الأمين، المؤيد بالوحي والقرآن العظيم. وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الأسرة هي المؤسسة الأولى التي تنطلق منها التربية، وتقع على عاتقها مسئولية تربية الفرد في أهم مراحل حياته، بل هي مقياس رقي الفرد والمجتمعات؛ إذ بصلاحها يكون صلاح المجتمع، ولما كان إبراهيم عليه السلام ذا أثر فعال في حياة الأمم كرَّمه الله ﷻ وأبقى ذكره ورفع شأنه، وقد كان من آثار رفعة هذا الشأن الطريقة التي عامل بها كل فرد من أفراد أسرته على حدة، والتي سطرها القرآن الكريم، وجعلها دستورًا تنقاد له الأمم ، وقانونًا يرجع إليه من أراد السكينة والاستقرار، من أراد تأسيس بيته، ومعاملة أسرته كما ينبغي أن تعامل، حتى يخرج لنا أسرًا مستقرة هادئة مطمئنة، تحمل لواء الدين وتصون الأعراض والحرمات، مسئولة عن رعيتها، فمعاملة إبراهيم عليه السلام لكل فرد جعل منه ومن أسرته نموذجًا يُحتذى به، وهذا ما سأبينه من خلال هذا البحث.

<u>أهمية هذا الموضوع:</u>

تنبع أهمية هذه الدراسة كونها تبحث عن الأسرة باعتبارها أحد أركان المجتمع وأهم دعائم استقراره؛ إذ بصلاحها يكون صلاح المجتمع وبفسادها يكون فساده.

<u>أسباب اختياري الموضوع:</u>

١- خدمة كتاب الله تعالى؛ وذلك لأنه كتاب هداية وإرشاد احتوى على كل أسباب السعادة الإنسانية؛وذلك ببحث أسرة من الأسر التي عنى القرآن الكريم بذكرها والتحدث عنها، وهي أسرة أبراهيم عليه السلام.

٢- سوء فهم بعض الناس للحكمة الأساسية من تنشئة الأسرة وأهدافها في بناء الفرد والمجتمع.

٣- إضافة دراسة جديدة في التفسير الموضوعي للمكتبة الإسلامية؛ ليستفيد منها طلاب العلم.

الدراسات السابقة:

أمر الإسلام بتأسيس الأسر والمحافظة عليها وتعهد أفرادها بالتنشئة الدينية والأخلاقية السليمة ؛ لذا اهتم الباحثون في مجال الدراسات القرآنية بالأسرة المسلمة، من خلال تقديم نماذج أسرية يقتدي بها المسلمون في بناء مجتمعهم الصغير،وبعد البحث لم أجد من تناول أسرة ابراهيم- عليه السلام- بالدراسة الموضوعية ، فقد تناولت هذه الدراسات السابقة الأسرة من جوانب مختلفة .

من أهم هذه الدرسات:

١- معالم الأسرة المسلمة في القرآن الكريم ، دراسة موضوعية- شرين زهير أبو عبدو- الجامعة الإسلامية – غزة- ٢٠١٠م.

٢- القيم الخلقية المستنبطة من قصص النساء في القرآن الكريم ، ودور الأسرة في غرسها في نفوس الفتيات- كوثر محمد رضا – جامعة أم القرى ،٢٠٠٤م.

٣- مصطلحات الاسرة في القرآن الكريم ، دراسة تأصيلية ، دلالية ، لغوية- فادية مصطفى محمود العبيني –جامعة اليرموك- ١٤٢٧هـ.

٤- الأسرة المثالية في ضوء القرآن والسنة، للكتور : عماره نجيب- جامعة الأزهر – رسالة دكتوراه. ١٩٧٣م.

منهجي في البحث:

١- جمع الآيات القرآنية ذات العلاقة بالموضوع.

٢- تصنيف هذه الآيات في موضوعات حسب خطة البحث.

٣- تفسير الآيات المتعلقة بالموضوع تفسيرًا موضوعيًا مستعينة بأمهات كتب التفسير والحديث، وغيرهما من المؤلفات المختلفة.

٤- نقل الآيات برسم المصحف مع عزوها إلى سورها وذكر أرقامها.

٥- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مظانها، فإن كانت في الصحيحين أوفي أحدهما اكتفيت به، وإذا كانت في غيرهما اجتهد في بيان درجته من خلال نقل أحكام العلماء عليها.

٦- الاكتفاء بذكر اسم المرجع ومؤلفه في الهامش؛ حتى لا أثقله بكثرة البيانات، وإرجاء عرض بياناته كاملة من التحقيق، ودار النشر، والطبعة في ثبت المصادر والمراجع.

خطة البحث

قسمت البحث إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، ثم ذيلته بالفهارس العلمية.

أما المقدمة: فتحدثت فيها عن: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج الذي سرت عليه فيه، وخطة البحث

وأما المبحث الأول: إبراهيم عليه السلام ودوره في النهوض والاستقرار بأسرته، فاشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول:

إبراهيم عليه السلام، ومعاملته لأبيه، ودعوته إياه إلى عبادة الله -تعالى- وترك عبادة الأصنام.

المطلب الثاني:

إبراهيم عليه السلام وعلاقته بأبنائه.

المطلب الثالث:

إبراهيم عليه السلام وعلاقته بذوي القربى والأرحام.

المطلب الرابع:

إبراهيم عليه السلام وعلاقته بالضيف وإكرامه.

المبحث الثاني: أزواج إبراهيم عليه السلام ودورهم في الأسرة، واشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: سارة عليها السلام.

المطلب الثاني: هاجر عليها السلام.

المبحث الثالث: أولاده عليه السلام ودورهم في النهوض بالأسرة.

المبحث الرابع : أثر الأسرة في بناء الفرد والمجتمع.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث.

الفهارس العلمية، وتشتمل على:

-فهرس المصادر والمراجع

*****

المبحث الأول: إبراهيم عليه السلام ودوره في النهوض والاستقرار بأسرته، واشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: إبراهيم عليه السلام، ومعاملته لأبيه، ودعوته إياه إلى عبادة الله -تعالى- وترك عبادة الأصنام.

المطلب الثاني: إبراهيم عليه السلام وعلاقته بأبنائه.

المطلب الثالث: ابراهيم عليه السلام وعلاقته بذوي القربى والأرحام.

المطلب الرابع:إبراهيم عليه السلام وعلاقته بالضيف وإكرامه.

المطلب الأول

ابراهيم عليه السلام ومعاملته لأبيه

سطرت لنا آيات القرآن الكريم كيف كانت معاملة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لوالده والتي تنم عن أدب راق، وتواضع جم، وحسن خلق، هذه المعاملة الفريدة الراقية نموذج أسري فريد لمن أراد أن يتأسى ويحتذي؛ لما احتوت عليه من احترام للأب والإحسان إليه، والعمل بكل ما يستطيع للأخذ بيد والده إلى الطريق المستقيم، مستخدمًا كل الأسباب التي تجعله يرق ويلين.

وقد كان لإبراهيم عليه السلام في تعامله مع أبيه ثلاث طرق، كلها في غاية الرقي، واللين، وحسن الخلق مما ينبغي لنا أن نتأسى بها في تعاملنا مع أبآئنا، وهذه الطرق كالتالي :

<u>أولًا: طريقة التعامل مع الأب الضال، ودعوته إلى دين الله- تعالى-:</u>

من أفضل أنواع القرب التي يتقرب بها العبد الى الله ﷻ وأعظمها أن يدعو الولد والديه إلى الإسلام إن كانا على غير الملة، أو دعوتهم إلى طاعة الله -تعالى - وترك معاصيه إن كانا مسلمين، وكان ذلك أعظم أنواع البر؛ لأن فيه نجاتهم من عذاب الله -تعالى -، كما أخبر ﷻ في محكم آياته- : [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ][1]، ولكن ينبغي أن تكون هذه الدعوة برفق ولين، وهذا ما نراه واضحًا جليًا في دعوة إبراهيم عليه السلام أباه إلى عبادة الله – تعالى-، وترك عبادة الأصنام.

فإبراهيم عليه السلام قدَّم لنا نموذجًا حيًا يَحْتَذِي به الأبناء في معاملة آبائهم، وفي كيفية تقديم النصح والإرشاد، فالإبن البار بوالديه المؤمن بالله ﷻ المنقاد لأوامره يكون حريصًا كل الحرص على صلاح والديه وقربهم من الله -تعالى-

---

(١) سورة النساء، الآية رقم (٤٨).

وتعديل سلوكهم بكل وسيلة كانت، هذا إن كانا مسلمين ، فكيف هو الحال إن كانا كافرين أحدهما أو كلاهما ؟ هنا نجد الدستور الذي وضعه لنا القرآن الكريم، والقانون الذي ينبغى عدم مخالفته فـ [لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ][1] ، نجد إبراهيم عليه السلام يتلطف بأبيه ويخاطبه بكل لهفة ورحمة وهدوء، بأدب جم ، وأسلوب راق، يتودد إليه حرصًا منه عليه، وقد حكى القرآن الكريم ذلك في سورة مريم، حيث قال تعالى:

[وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨][2].

فيظهر لنا من خلال هذه الآيات الكريمات أن خليل الرحمن عليه السلام، وضّح نموذجًا ساميًا، وأسلوبًا راقيًا في البر والإحسان للوالدين، رغم أن أباه عارض دعوته، فلم يكن خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر خطابًا فظًا، بل كان في غاية الأدب واللطف واللين، مبديًا مشاعر التودد والإشفاق، فهو يدعو بهذه الأخلاق أباه إلى توحيد الله ﷻ، ونبذ عبادة ما سواه –تعالى–، حريصًا كل الحرص على هدايته وإيمانه، رغبة منه في فوزه بالجنان، والبعد عن مفاوز الشيطان، فيهلك ويكون من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وهكذا قام عليه السلام بواجب البر مع

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم (٢٥٦).

(٢) سورة مريم، الآيات (٤١: ٤٨).

أبيه، يبدو ذلك واضحًا جليًا من خلال ألفاظ الآيات الكريمات، فقد سلك عليه السلام في دعوته لأبيه أسلوبًا دعويًا رائعًا، لا بد لنا من الاقتداء به، تمثَّل فيما يلي:

١- تذكير أباه بصلة القرابة: وذلك من خلال ندائه بلفظ الأبوة وتكرارها أكثر من مرة، ففي قوله: [يَٰٓأَبَتِ] أسمى معاني البر، والتواضع، وفي تكرارها: استرعاء سمع أبيه، وتنبيهه حتى يحضر ذهنه، وقلبه فيعي ما يقال له؛ حتى يحصل له من الاستلطاف والاستمالة، فكلما كرر الخطاب بالأبوة (يأبت) استشعر الأب العلاقة التي بين المخَاطِب وبينه، هذه العلاقة (علاقة الابن بأبيه) التي لا دخل فيها للتكبر ولا للإمرة، فحينئذ يعلم الأب أن المخاَطِب والمنادي- الابن- مخلص في نصيحته، لا يبتغي إلا صلاح أمره، وهدايته بمشيئة الله- تعالى- إلى الصراط المستقيم، [ککککگگگگيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ][(١)].

"فقول الله –تعالى-: [يَٰٓأَبَتِ] عبارة تذكر بالصلة القوية التي تربط بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه ، وهي رابطة الأبوة والبنوة، وما يكون عادة بين الولد والوالد من محبة أحدهما للآخر، وحرصه على مصلحته، وتضحيته من أجله، حتى وجدناه يكرر هذا النداء الرقيق لأبيه في صدر كل جملة يخاطبه بها؛ من أجل استمالة قلبه، وترقيق فؤاده"[(٢)].

ففي قصة إبراهيم مع أبيه تنكشف أمور.. منها: أولًا: هذا الأدب فى الخطاب، من الابن إلى أبيه.. حيث تصدّر كل دعوة من إبراهيم إلى أبيه بقوله: [يَٰٓأَبَتِ]، وقد تكرر هذا النداء الرقيق الحبيب، أربع مرات.. وهذا، فوق أنه أدب يوجبه حقّ الأبوّة، أدب تقتضيه النبوة، ويقضى به الأسلوب الذي تقوم

---

(١) سورة القصص، الآية رقم (٥٦).

(٢) ينظر: مع الأنبياء في القرآن، لعفيف عبد الفتاح طبّارة، (ص١٠٩، ١١٠).

عليه دعوتها فى الناس كما يقول- سبحانه وتعالى- لنبيه الكريم: [ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ] (١).»(٢).

<u>٢- طرحه ﷺ للسؤال، وتقديمه البرهان العقلي لوالده:</u>

فقد استفهم إبراهيم ﷺ عن السبب الحامل لأبيه على عبادة الأصنام وهو منتف عنه السمع والبصر والإغناء عنه من الله شيئًا؛ تنبيهًا على شنعة الرأي وقبحه وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف"(٣).

يقول -تعالى:[إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ ﭵﭶﭷﭸعَنكَ شَيۡـٔٗا]:" فقد سلك ﷺ في دعوته أحسنَ منهاجٍ وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدبٍ وخلقٍ جميل؛ لئلا يركبَ متنَ المكابرة والعناد، ولا يُنكّبَ بالكلية عن مَحَجّة الرشاد حيث طَلب منه علةَ عبادتِه، لِما يستخفّ به عقلُ كل عاقل من عالم وجاهل، ويأبى الركون عليه فضلًا عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحِقُّ إلا لمَنْ له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام"(٤).

<u>٣- تنبيهه ﷺ أباه بحذر شديد</u>: فقد تابع إبراهيم ﷺ دعوة أبيه إلى الحق مترفقًا به، فدعاه بحذر شديد؛ كي لا يشعر بالغضاضة من اتباعه، فلم يصرح ﷺ بجهل أبيه تأدبًا في دعوته، وفي هذا ما يدل على الأدب الجم، والخلق النبوي الرفيع، وحسن الخطاب، والحرص على انتقاء الألفاظ التي تقرب وتحبب، متجنبًا عبارات التخويف والترهيب التي تنفر وتبعد، فقال: [يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﮋ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا](٥).

---

(١) سورة النحل، [الآية رقم ١٢٥].

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (٧٣٨/٨)

(٣) ينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان (٢٦٨/٧)

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٢٦٧/٥).

(٥) سورة مريم، [الآية ١٠].

ففي هذه الآية المباركة لم يجعل إبراهيم ﷺ من الجهل المطبق صفة لأبيه ، ولا من العلم المتناهى صفة لنفسه، بل غاية أمره أنه أبلغه ما أطلعه الله ﷻ عليه من الوحي الذي أوحاه إليه، من بيان فساد معتقده، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ومن بيان حقيقة ما يلاقيه بعد الموت إذا مات على ماهو عليه .

فلم يسِمْ أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل أبرز نفسه في صورة رفيقٍ له، أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق، فاستماله برفق؛ حيث قال: [۞أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا]، أي: مستقيمًا موصلًا إلى أسنى المطالب منجيًا عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب"[١].

والمتأمل في هذه الدعوة يجد أن إبراهيم ﷺ لم يجعل لنفسه حولًا و قوة في هذا العلم ، وإنما العلم كله من عند الله – تعالى- ؛ كي لا يُشْعِر أباه بالتفضل عليه بشيء من عند نفسه، فيستصغره ، ويتكبر عن قبول الحق.

فقول إبراهيم – عليه السلام – لأبيه : [يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ] فيه محافظة الأدب من وجهين:

أحدهما: التبرؤ من الحول والقوة لوجه الله-تعالى- .

والآخر: ترك التفضل على أبيه من ذات نفسه[٢].

٤- نهيه ﷺ أباه عن عبادة الشيطان، وإرشاده لعلة ذلك:

تابع إبراهيم ﷺ دعوة أبيه إلى الحق مترفقًا به؛ فنهاه عن مناصبة العداء لله – تعالى- وعن عبادته للشيطان وفساد ماهو عليه، ببيان بعض الصفات التى تثبطه عن عبادته لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وبيَّن له

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٦٧/٥).

(٢) دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، للجرجاني (١١٥٧/٣).

أن المعبود حقيقة ليست هذه الأجرام التي نحتوها، وصوروها بأيديهم كما قال -تعالى-: [أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾] (١)، وإنما المعبود في حقيقة الأمر هو الشيطان الذي وسوس إليهم، وزيَّن لهم عبادتها، وأمرهم بها، هذا الشيطان الذي عصا الله – تعالى-، فطرده من رحمته؛ لذا توعد بإغواء من يقدر عليه من بني آدم؛ حتى يصيروا إلى نفس مصيره، فلا يتمايزوا عنه، فقال:[كككگگگكَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا](٢)

فثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة، مستجلب لضرر عظيم، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان. لما أنه الآمر به والمسوّل له، وقوله: [گگ]إلخ: تعليل لموجب النهي وتأكيد له، ببيان أنه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم. ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص"(٣).

٥- <u>إظهاره عليه السلام الشفقة والخوف على أبيه من عذاب الله -تعالى-:</u>

فلم يصرح إبراهيم عليه السلام بلحوق العذاب بأبيه، وإنما أظهر له الشفقة والخوف عليه من عذاب الله تعالى؛ حيث قال:

[يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا]، وفي هذا دليل على شدة حبه لوالده وحرصه عليه، مما يدل على إدراك قدر الأبوة ومكانتها، وعظم درجتها، فضلًا عما يدل ذلك من الأدب العالي الرفيع، وفيض العاطفة المتميز.

---

(١) [سورة الصافات ، الآية رقم ٩٥].

(٢) [سورة مريم، الآية رقم٤٤].

(٣) ينظر: محاسن التأويل، للقاسمي (١٠٠/٧).

قال الزمخشري:" ...ثم ربَّع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: [أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ]، فذكر الخوف والمس ونكَّر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: [يَٰٓأَبَتِ] توسلًا إليه واستعطافًا"[(١)].

فقوله-تعالى- حكاية عن إبراهيم:

[يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ]، لم يخل هذا الكلام من حسن الأدب مع الأب حيث لم يصرح فيه بأن العذاب لاحق له ،ولكنه قال: [إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ]، فذكر الخوف والمس، وذكر العذاب ونكَّره، فلم يقصد به -عليه السلام- التهويل، بل قصد الاستعطاف ،ومن موجبات هذا الاستعطاف ايثاره وصف الله -تعالى- بالرحمن ، ولم يصفه بكونه منتقم، ولا جبار،وهذا أدعى للاستمالة والعطف "[(٢)].

<u>وبذلك يتبين لنا</u>: إلى أي مدى كان توفيق إبراهيم عليه السلام في اختيار ألفاظ المحاورة والدعوة لأبيه، فبهذا الصدق النبوي، وبحرارة الدعوة الحقة، أوضح عليه السلام لأبيه طريق الخير والشر، وكيف دلت هذه المحاورة والمناقشة على حسن الخلق، والأدب الرفيع، والتواضع مع الأب ، فلم ينس أنه أباه ، وأن هذه الأبوة تتطلب معاملة خاصة.

---

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (٣/٢٠).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٣/٣٨١).

كما دلت على التدرج في الدعوة والحوار، إذ بدأت بالتساؤل الذي يحمل معنى التعجب والإنكار، ثم بيان كون النصيحة مبنيةً على علمٍ حتى يغرس الثقة في المخاطب، مع نفي العلم عن أبيه بأدب ولطف، وبيان الهدف من النصيحة وهي هداية أبيه، ثم النهي المصحوب بالتعليل عن عبادة الشيطان، والتحذير من عداوة الشيطان القديمة للإنسان، ومن ثَم النهي عن عبادته بالخضوع والاستجابة لوساوسه وكيده، ثم في النهاية التحذير الصريح المصاحب للإفصاح عن النية الحسنة والشفقة والخوف على الأب من عذاب الله.

ولكن لم يكن من هذا الأب إلا كل جفوة وقسوة في التعامل مع ابنه الذي لا يرجو له إلا خير الدنيا والأخرة، فمع كل هذا التودد، والاستعطاف من جانب الابن البار بوالده، لم يجد من أبيه إلا المقابلة بالغلظة ، وجفاء القلب، والقسوة ، فلم يراع حق البنوة في التعامل كما راعى إبراهيم عليه السلام حق الأبوة في المعاملة والدعوة والمحاورة، واللين في القول فأغلظ عليه قولًا، وفعلًا، فقال كما حكى القرآن عنه :

[أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾](١)

والمتأمل في طريقة إبراهيم عليه السلام في التعامل مع أبيه من المسايرة والمجادلة بالحسنى، واستدرار عاطفة الأبوة على قلبه بلين، يجد كيف هذَّب الإسلام الطباع، وألانها وطوعها، فالأب مع كفره إلا أنه أب يخاطب بكل أدب [يَـٰٓأَبَتِ]، وهذا ما تقتضية آداب النبوة ، فضلًا عن حق الأبوة ، أما هذا الأب العتي العنيد الذي استبد به الكفر فلم تحركه عاطفة نحو ابنه كما فعل ابنه معه ، فجاءالرد بكل قسوة وجفاء، وغلظة هذا هو حال أصحاب الأهواء

(١) [سورة مريم، الآية رقم ٤٦].

والضلالات الذين طبع الله على قلوبهم، فأعمى أبصارهم عن رؤية الحق ، وقلوبهم عن الاهتداء إليه، فهدده وأغلظ عليها فقال مخاطبًا إياه: [يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا] ذكره باسمه عليه السلام (يا إبراهيم)، فلم يقل: (يابني) كما قال إبراهيم في بداية المحاورة: [يَٰٓأَبَتِ]، هكذا كان رد الجميل من القول بالغلظة في الكلام، والقسوة في الفعل [لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا].

هذه الأفعال التى تنم عن تجرد صاحبها من كل مشاعر الأبوة ، وما كان ذلك إلا لتمكن الهوى والطغيان من نفسه فصده عن السبيل، ومع ذلك لم يغضب إبراهيم عليه السلام، ولم يكن منه الإ الإحسان، ولين الجانب، فجعل نصب عينيه أنه أباه، فالوالد وإن أباح لنفسه التعامل بالقسوة والغلظة، إلا أنه ينبغي على الابن أن يتلطف في الرد [وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا][1]، فمن صفات الأبناء الصالحين في تعاملهم مع آبائهم عدم مقابلة الإساءة بالإساءة ، بل هم أصحاب خلق كريم ، فيعفون ويصفحون، هذا ما نلمسه واضحًا جليا من الطريقة الثانية التي عامل بها ابراهيم عليه السلام أباه بعدما ناصبه العداء ، وأظهر عداوته لكل ما يدعو إليه ، فننظر كيف تعامل الابن مع أبيه في هذه المرحلة؟

ثانيًا: مقابلة الإساءة بالإحسان.

فعندما أصرَّ والد إبراهيم عليه السلام على كفره ، وردَّ على دعوة ابنه إياه بغلظة وفظاظة، قابل إبراهيم عليه السلام هذه الشدة والغلظة بالرأفة والرحمة ، فمن صفات عباد الرحمن الذين أثنى عليهم ربنا- تبارك وتعالى- ، وأعلى شأنهم أنهم لا يجادلون ويمارون للمجادلة والمراء ، بل إن من أعظم صفاتهم التعامل

(١) [سورة الإسراء ، الآية رقم ٢٣].

بالتي هي أحسن، خاصة مع من يعادي دين الله من الجهلة والسفهاء، كما قال-تعالى- :

[وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا](١) ، وقال تعالى:

[وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي](٢)

فبعد كل ما وُجِه إلى إبراهيم عليه السلام من أبيه من تهديد بالقتل ، وأمره بهجره، لم يغضب إبراهيم عليه السلام، ولم يفقد عطفه، وأدبه مع والده، فلم يقابل إساءة أبيه له بإساءة مثلها، بل قابل ذلك بالإحسان قائلًا له: [سَلَامٌ عَلَيْكَ] هذا السلام جاء من إبراهيم عليه السلام على عادة الصالحين في تعاملاتهم من المتاركة والموادعة، ومعنى هذا السلام: سلام متاركة واعراض أي: لن يصلك مني مكروه، ولن أقول لك مايؤذيك، ولكن غاية ما يصلك مني هو الاستغفار [سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي]، لعل الله يهدي قلبك، ويوفقك للتوبة والإيمان، [إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا]، أي: بارًا لطيفًا يجيب دعائي إذا دعوته(٣).

وهذا الاستغفار كان عن موعدة وعدها إبراهيم عليه السلام لأبيه فاستغفار إبراهيم لأبيه رجاء أن يلين قلبه لقبول الحق، وتهتدي نفسه للدين القيم، فينجوا من عذاب الله – تعالى-، هذ الاستغفار قد ذكره الله – تعالى- في أكثر من موضع فقال- تعالى- حاكيًا عنه عليه السلام في سورة

(١) [سورة الفرقان،الآية رقم ٦٣].

(٢) [سورة القصص، الآية رقم ٥٥].

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للبيضاوي(١٢/٤)

الشعراء :[وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ] [١]، وفي سورة إبراهيم:

[رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ][٢].

لقد وعد إبراهيم عليه السلام أباه أن يستغفر له كما بينا سابقًا ، هذا الاستغفار كان أملًا في إيمانه، وقد وفَّى إبراهيم بوعده، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله– تعالى– ، فتبرَّأ منه؛ لكفره، كما قال تعالى:

[وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ] [٣].

فلما أصرَّ والده على موقفه وكبره وعناده فلم ينفعه النصح والإرشاد ، تبيَّن لإبراهيم عليه السلام أن أباه عدو لله، فتبرأ منه، هذه هي عقيدة الولاء لدين الله، والبراء ممن يعادي دينه، حتى لوكان أحد الوالدين أوكلاهما .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: " إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ "[٤].

---

(١) [سورة الشعراء : الآية رقم (٨٦).

(٢) [سورة إبراهيم:الآية رقم ٤١].

(٣) [سورة التوبة : الآية رقم ١١٤].

(٤) صحيح البخاري ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب قول الله– تعال : {[وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥] {النساء:١٢٥}، حديث رقم (٣٣٥٠)، (١٣٩/٤) .

ثالثا: الطاعة في غير معصية والبراء ممن يعادي دين الله:

عندما أيس إبراهيم عليه السلام من إيمان أبيه وقومه ، وقبولهم للدين القيم، وإصرارهم على ماهم عليه من فساد المعتقد ، وتقليدهم الأعمى لأبائهم وأجدادهم ، وتماديهم في الكفر والضلال، قرر أن يعتزلهم ويبتعد عنهم، فهاجر إبراهيم عليه السلام ، وترك موطنه إلى الأرض المقدسة ؛ حتى يتفرغ لعبادة الله وحده ، ونشر الدين، فجاءت هذه الهجرة بأمر الله – تعالى – ولأجله، كما أخبر في موضع آخر : [وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ](١)**، فكانت أول هجرة في سبيل الله** (٢)**، فقال كما أخبر القرآن عنه :**

[وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾](٣)

هكذا ينبغي أن يكون حال العبد الصالح ، إذا لم يتمكن من إصلاح والديه بلين قوله وفعله، فأصروا على الاستمرار على ما هم عليه من فساد في القول والفعل، وأصبحوا عقبة لا يستطيع الابن معها عبادة الله – تعالى– والقيام بحدوده ، فعليه اعتزالهم ومفارقتهم، وهجرتهم، حتى يتمكن من إقامة حدود الله ، وعبادته، كما قال – تعالى– :

[يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ](٤)**، ولنا في إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة، وينبغى أن تكون هذه المفارقة والمتاركة مشروطة بعدم ايذائهم بالقول والفعل ، فيضع الولد نصب عينيه أنهما والداه، أما إن كانا من عصاة المسلمين ، فلا يهجر ولا يفارق، بل يتعهدهم بالنصح والتوجيه، مع التودد، واللين، حتى وإن آذوه بسوء قولهم، وقبح فعلهم، فلابد من أن يصبر على ما**

---

(١) [سورةالعنكبوت، الآية رقم ٢٦].

(٢) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور(١٤٦/٢٣).

(٣) [سورة مريم ، الآية رقم ٤٨].

(٤) [سورة العنكبوت، الآية رقم ٥٦].

يقولون ويفعلون ، كما قال – تعالى- : [وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا][(١)]، هكذا ينبغي أن تكون معاملة الأبناء تجاه آبائهم العصاة.

فما كان من إبراهيم عليه السلام بعد مناصبة أبيه له العداء والدعوة بالمفارقة والابتعاد، إلا أن أعلنها واضحة جلية، بعد أن وعد أباه بالاستغفار له رجاء إيمانه، أنه سيعتزله وسيترك بلده وقومه، ويتبرأ من الأصنام التي يعبدونها من دون الله، ويرتحل عنهم جميعًا إلى أرض الله الواسعة؛ ليخص الله وحده بالعبادة والطاعة، فقد عوَّده سبحانه وتعالى- أن لا يخيِّب دعاءه ورجاءه، فقال: [وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾][(٢)]، وجيء بلفظ [عَسَىٰٓ] في دعائه على سبيل التواضع، كقوله:

[وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ][(٣)]، ويراد بها التحقق لامحالة، فهو عليه السلام أبو الأنبياء، وكذلك لفظ [شَقِيًّا] ذكره على سبيل التواضع، وفيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم في قوله المتقدم لأبيه: [لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا] [(٤)].

<u>دلالة الآيات السابقة:</u>

بعد عرض هذه الملحمة التى كشفت لنا النقاب عن معاداة أهل الغي والبطلان لمنهج الفطرة الإسلامية، فمن تمكن العصيان في نفسه وركب هواه وانقادت له نفسه فلا رجاء في إيمانه؛ إذ انحراف النفس واتباع الهوى داء لا علاج له إلا لمن أراد الله له النجاة.

---

(١) [سورة طه، الآية رقم ١٣٢] .

(٢) [سورة مريم ، لآية رقم ٤٨].

(٣) [سورة الشعراء ، الآية رقم ٢٨].

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للزحيلي (١٠٩/١٦)،

ونستطيع من خلال العرض السابق أن نستخلص بعض الدلالات الواجبة على الأبناء في معاملة آبائهم منها:

١-أن البر بالوالد أو الوالدة ليس مقتصرًا على تلبية حاجتهما ، والإنفاق عليهما، بل الأهم من ذلك كله السعي لنجاتهما في الآخرة بالدعوة إلى الله -تعالى- فهي من أعظم وجوه الإحسان، كما كانت حال إبراهيم عليه السلام مع والده .

٢-التواضع مع الوالد عند دعوته إلى الحق، فلا يظهر الابن أنه أعلم من أبيه أو أصلح منه، بل لا بد من اختيار العبارات التي تكون سببًا في قبول الوالد لدعوة ابنه؛ وذلك لأن دعوة الولد لأبيه تحتاج إلى خطاب خاص، ينبع ذلك من صلة القرابة، ويكون مصبوغًا بالشفقة والرحمة والأدب، كما كانت حال إبراهيم عليه السلام فنجد أنه قد رغب بصلاح أبيه وأداء حق الأبوة والرفق به، فقوله: [يَـٰٓأَبَتِ]، وتكرير النداء بهذا اللفظ المقتضي الاستعطاف ورقة القلب أربع مرات رغبة منه في ميل قلبه إلى دين الله -تعالى-، فاللطف، والتودد باديان في تعبير إبراهيم عليه السلام في محاورته لأبيه، ذلك الذي قوبل بالغلظة والتوبيخ والإنكار والوعيد .

٣-الكلام باللين واللطف، حتى وإن اختلفت العقيدة بين الوالد والولد، فاللين والأدب حق الأبوة .

٤-هذا ومن جهة أخرى ينبغي أن نحتذي بهذه المعاملة الكريمة من التودد والتلطف في القول مع الأبوين المسلمين، حتى وإن كانا يرتكبان بعض المعاصي، فنقدم لهم النصيحة باللين والرقة متوددين إليهم ومذكِّرين لهم بالعلاقة التى تربط أحدنا بالأخر، وهى الأبوة والأمومة، وأننا لا نريد لهم إلا صلاح الدنيا والدين والنجاة من عذاب الله -تعالى-

في الآخرة، والفوز برضاه، فكم من موعظة رفضت، وكم من نصيحة ضرب بها عرض الحائط ؛ لأن الطريقة التى قيلت بها غير لائقة، ولم يسلك في عرضها منهج الأنبياء،المنهج الذي أسسه لنا إبراهيم مع أبيه، وقومه. فالآباء وإن قصروا في بعض الواجبات أو ارتكبوا بعض المعاصي يجب على الولد النصح لهما بأدب ورفق ، فإن ماتا فالاستغفار والدعاء لهما، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ " إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟، فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ"(١).

٥-الإحسان إلى الوالدين وصلتهما وإن كانا على غير الدين، وهذا مشروط بعدم المحاربة في الدين، أو طلب أمر يعادى الله وسوله، فإذا لم يستجب الوالد لدعوة ولده، فإن للولد في إبراهيم عليه السلام أسوة، فالأسوة تكون في البراءة منه إذا تبين له أنه عدو لله، وذلك كأن يموت الوالد مشركًا، ويتيقن الولد ذلك. والتسلية تكون في عدم الأسى والحزن على الوالد ، فإبراهيم عليه السلام كذلك كانت نهاية والده، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، مع أن سياق الآيات قبل ذلك كانت تدل على مدى شفقة ابراهيم عليه السلام على أبيه وطمعه في إيمانه ، لكن ما إن ظهر منه معاداة الله وإصراره على الكفر حتى سارع إبراهيم في التبروء منه؛ إذا الطاعة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه – كتاب : الأدب، باب: بر الوالدين، حديث رقم (٣٦٦٠) (١٢٠٧/٢). تعليق محمد فؤاد عبد الباقي] في الزوائد : إسناده صحيح. رجاله ثقات، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ذكر طوائف من جماهير النساك والعباد – حماد بن سلمة ومنهم المجتهد في العبادة المعدود في الإمامة أبو سلمة حماد بن سلمة (٢٥٥/٦) ، وقال:" لم نكتبه عاليا إلا من هذا الوجه موقوفا. وهو غريب من حديث حماد، وعاصم".

للوالدين والتي قرن الله -تعالى- بها عبادته في كتابه الكريم في قوله -تعالى-:

[۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا][الإسراء: ٢٣]، هذه الطاعة مقرونة بعدم المعصية وأن تكون طاعة فيما أراده الله -تعالى- وشرعه، أما إذا كانت طاعة في معصية فلايجب على الإنسان طاعتهما قال -تعالى: [وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا] {لقمان: ١٥}.

وقد نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص: لما أسلم حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: [وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى] وَفِيهَا [وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا][لقمان: ١٥][(١)]، أي: وصاحبهما فى أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين، ويقتضيها الكرم والمروءة، بإطعامهما وكسوتهما، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا، ومواراتهما فى القبر إذا ماتا [(٢)].

****

(١) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم- باب: فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- - حديث رقم (١٧٤٨) (١٨٧٧/٤).

(٢) ينظر: تفسير المراغي (٨٤/٢١).

المطلب الثاني:

إبراهيم عليه السلام وعلاقته بأبنائه، وطرق معاملته لهم

الأولاد هبة من الله –تعالى– يهبها من يشاء ويمنعها عن من يشاء، مصداقًالقوله تعالى: [لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠][(١)]، وقد امتحن الله – تعالى– خليله عليه السلام في أسرته بأمرين : كبره ، وعقم زوجته، وما كان ذلك إلا ابتلاء من الله –تعالى، قال ﷻ: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ][(٢)]، وليكون لنا فيه عبرة ومثلًا في الصبر على ابتلاء الله ﷻ، ولنحتذي بما فعل وانتهج، فقد عاش عليه السلام فترة طويلة لم يرزق بالأولاد، ولما كان الأولاد هم ثمرة الزواج، والهدف الذي ترمي إليه الشريعة الاسلامية من تكوين الأسرة وهم الأساس الذي يقوم عليه استمرار الوجود البشري ، وبهم يتمكن الإنسان من إقامة خلافة الله –تعالى– في أرضه قال – تعالى–: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً] [(٣)]، فهم ثمرات القلوب،وقرة الأعين ومهوى الأفئدة، ومطمح الآمال، وبهم تطيب الحياة ، وتهون الصعاب من أجل رؤيتهم والاستئناس بهم، فهم شهوة الإنسان بطبعه، قال –تعالى– :

[زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ][(٤)][(٥)].

---

(١) [سورة الشورى ،الآيات ٤٩، ٥٠].

(٢) [سورة محمد ، الآية رقم ٣١].

(٣) [سورة البقرة ، الآية رقم ٣٠].

(٤) [سورة آل عمران، الآية رقم ١٤].

(٥) ينظر: الأساس في التفسير ، لسعيد حوى (٢/٧١٣).

فهم زينة الحياة الدنيا [ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا] (١)، وطلبهم دأب الأنبياء والصالحين، ومطمعهم في استمرار الحياة، فالولد ثمرة الأسرة ويتحمل الأب من الصعاب لأجله مالا يتحمله من أجل غيره، ولنا فيهم أسوة حسنة قال زكريا عليه السلام : [رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ](٢)، وقد أخبر الله –تعالى – أن من ضمن صفات عباده المتقين الصالحين في معرض مدحهم [وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ] (٣)، وقد أخرج الطبراني: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَخْبَرَتْنِي حَفْصَةُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَايَدَعْ أَحَدُكُمْ طَلَبَ الْوَلَدِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ انْقَطَعَ اسْمُهُ "(٤).

بدأت علاقة إبراهيم عليه السلام بأبنائه قبل أن يظهروا للحياة بدأها بدعوة يجأر فيها إلى الله – عزوجل– أن يرزقه ذرية صالحة؛ تكون له عونًا في الحياة، وعوضًا عن قومه وعشيرته الذين كفروا به وهددوه ، وناصبوه العداء ولم يكتفوا بذلك حتى ألقوه في النار، التي جعلها الله –تعالى بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام.

ويتبين لنا علاقته عليه السلام بأبنائه من وجوه:

<u>الوجه الأول: دعوته عليه السلام أن يهبه الله –تعالى– الذرية الصالحة.</u>

كِبر إبراهيم عليه السلام وعقم زوجته، لم يثنه عن طلب الولد، فتوجه إبراهيم عليه السلام بأكف الضراعة في صبر واستسلام ، وإذعان أن يرزقه الله –

(١) [سورة الكهف، الآية رقم ٤٦].

(٢) [سورة الأنبياء، الآية رقم ٨٩].

(٣) [سورةالفرقان، الآية رقم ٧٤].

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير – مسند النساء – باب : الزيادات في حديث حفصة رضي الله عنها، حديث رقم (٣٦٩) (٢١٠/٢٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، برقم (٧٣٤٢)، (٢٥٨/٤)، وقال:" رواه الطبراني، وإسناده حسن".

تعالى- الذي لا يعجزه شيء، والقادر على كل شيئ الذرية الصالحة قائلًا: [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ][(١)].

والناظر في دعوة إبراهيم عليه السلام يجدها جاءت بعد انقطاع آماله في إيمان قومه ، ومناصبته العداء ، ولم يعد هناك أمل في هدايتهم ، وانصلاح أحوالهم ، فخرج مهاجرً بأمر ربه إلى أرض أخرى، كما أخبر الله-تعالى- عنه: [وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ] [(٢)(٣)]، وقوله – تعالى-: [فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا] [(٤)].

ولما كان من فضل الله ﷻ أن من ترك شيئًا لله – تعالى- أبدله الله خيرًا منه، فلما ترك إبراهيم عليه السلام قومه وأرضه، عوضه الله ﷻ بخير منهم، يؤنسونه في غربته، ويعينونه على عبادة الله – تعالى، فيكونوا سببًا في نشر دين الله ، والقيام بخلافته في أرضه.

<u>وقد تضمنت دعوة إبراهيم عليه السلام دعوتين عظيمتين :</u>

<u>الأولى</u>: طلب الهداية من الله – تعالى- والذي صدرها بـ(السين) تأكيدًا لوقوعها لثقته بربه الذي خرج مهاجرًا من بلده فرارًا بدينه وحماية له رجاء نشره بين أناس آخرين يفتح الله – تعالى- قلوبهم وآذانهم ، يشرح صدرهم لقبوله والدفاع عنه بالغالي والنفيس.

فقوله –تعالى- :" [سَيَهْدِينِ]:أي، سيرشدنى إلى ما فيه صلاحي في دينى ويعصمني ويوفقني، كما قال موسى عليه السلام: [كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾][(٥)] كأن

---

(١) [سورة الصافات ، الآية رقم ١٠٠].

(٢) [سورة الصافات ،الآيتان رقم ٩٩، ١٠٠].

(٣) ينظر: صفوة التفاسير، للصابوني (٣٦/٣).

(٤) [سورة مريم، الآية رقم ٤٩].

(٥) [سورة الشعراء، الآية رقم ٦٢].

الله وعده وقال له: سأهديك، فأجرى كلامه على سنن موعد ربه ، أو بناء على عادة الله – تعالى– معه في هدايته وإرشاده، أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله(١).

الأخرى: طلب الذرية من الله – تعالى– هذه الذرية من متطلبات نشر الدين وإعلاء كلمة الحق ، فسأل ربه أن يهبه الولد الصالح ، [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ]

وفي تقييده عليه السلام الولد بكونه صالحًا حكمة بالغة

وذلك لأن من أفضل ماينعم الله –تعالى– به على العبد صلاح الذرية، فالأباء لا ينتفعون بأولادهم إلا إذا كانوا صالحين ، لما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ "(٢)، فابراهيم عليه السلام يريدهم مطيعين صالحين هداة مهدين يكونوا عوضًا له عن قومه وعشيرته الذين فارقهم فأخرجوه وناصبوه العداء ، وصار من بعدهم لا أهل له ولا وطن.

وكذلك فالإبن الصالح لا يقتصر نفعه في الحياة الدنيا بالبر بوالديه والإحسان إليهم، والتودد والرفق بهم وتفقد أحوالهم فقط،بل يتعدى نفعهم إلى بعد الممات ، وذلك بالدعاء والاستغفار لهم ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ اللهَ

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: (الوصية)، باب: مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، حديث رقم (١٦٣١)، (٣/١٢٥٥).

ﷺ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ"[١].

يقول الإمام الرازي:" واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل طلب الصلاح لنفسه، فقال: [رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ][٢]، وطلبه للولد فقال: [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ]، وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا، فقال: [وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين][٣]، وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد[٤].

دلالة الآيتين الكريمتين:

- تبين لنامن الآيتين السابقتين أن إبراهيم عليه السلام تحمل المشاق من أجل الدعوة إلى الله – تعالى–، حتى أنه ترك أرضه وعشيرته وتبرأ منهم وتوجه الى أرض أخرى لكي يتمكن فيها من عبادة الله –تعالى– ولما كان وحيدًا دعا الله –تعالى– أن يرزقه الولد لكي يكون عونًا له، ولم يكتف بطلب الولد بل أراده من الصالحين فتعهده بالدعاء بالصلاح [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ]،.
- ينبغي لمن حرم من نعمة الولد أن لا ييأس مهما كبر سنه ، ومهما انقطعت به الأسباب ، فالله على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، حديث رقم (١٠٦١٠)، (٣٥٦/١٦، ٣٥٧)، والطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (٥١٠٨)، (٢١٠/٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، حديث رقم (١٧٥٩٥)، (٢١٠/١٠)، وقال: "رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة، وقد وثق."

(٢) [سورة الشعراء: الآية رقم ٨٣].

(٣) [سورة النمل ، الآية رقم ١٩].

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٤٥/٢٦).

قال الماتريدي عند تفسيره لقوله- تعالى-: [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ]:" فيه دليل جواز سؤال الولد الذكر ربَّه، لكنه يسأله بشرط الصلاح والطيب كما سأل الأنبياء وسأله إبراهيم عليه السلام [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾][(١)] ، وقال زكريا عليه السلام : [هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً][(٢)] ، وما ذكر وحكي عنهم مدحًا لهم وثناء عليهم حيث قال ﷻ [وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾][(٣)]، فيجب على من يسأل ربه الولد أن يسأله على هذه الشرائط التي سألته الأنبياء – عليهم السلام – فيكون سؤالهم الولد على ذلك سؤالًا لله ﷻ وما يصلح لقيامه لأمره وعبادته، فأما أن يسأله إياه لذة لنفسه وسرورًا له في الدنيا فلا"[(٤)].

وينبغي-أيضًا- لمن أراد الذرية الصالحة أن يصلح من حاله أولا حتى ينصلح حال أولاده فلا ينتظر حتى يأتوا إلى الحياة، بل يتعهدهم قبل أن يوجدوا بالدعاء إلى الله -تعالى- بصلاح أحوالهم، لنا في ابراهيم – عليه السلام أسوة حسنة – [إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾][(٥)]، [فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ][(٦)]، وهذا هو عين الصلاح بل هو عين التوحيد فالبراء من الشرك وأهله، واعتزال الكفرة وما يعبدون ابتغاء مرضاة الله، هو أقصى غايات التقوى.

---

(١) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٠].

(٢) [سورة آل عمران، الآية رقم ٣٨].

(٣) سورة الفرقان، الآية رقم ٧٤].

(٤) ينظر: تأويلات أهل السنة ، للماتريدي (٥٧٧/٨).

(٥) [سورة الصافات، الآيتان رقم ٩٩، ١٠٠].

(٦) [سورة مريم، الآية رقم ٤٩].

وقال – تعالى– لمن يخشى على أولاده من بعده أن يتقوا الله ، ويقولوا قولًا سديدًا: [وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا][1] ، وقد روي أن سهل التستري كان يتعهد ولده وهو في صلبه، فيباشر العمل الصالح رجاء أن يكرمه الله –تعالى– بالولد الصالح ، فيقول " إني لأعهد الميثاق الذي أخذه الله –تعالى– عليَّ ؛ في عالم الذر ، وإني لأرعى أولادي من هذا الوقت إلى أن يخرجهم الله –تعالى– إلى عالم الشهود والظهور"، وقال سعيد بن المسيب: "إني لأُصلي فأذكر ولدي ، فأزيد في صلاتي" [2].

الوجه الثاني: استجابة الله –تعالى– دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام.

ومع كل هذا البلاء [فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا] [3]، فاستجاب الله – تعالى دعوة إبراهيم عليه السلام فوهبه–تعالى– إسماعيل عليه السلام الذي وصفه الله بالحلم قال –تعالى–:

[فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾][4]، وقد انطوت هذه البشارة على أمور ثلاثة:

الأول: على أن الولد غلام ذكر.

الثاني: أنه سيبلغ الحلم.

الثالث: أن يكون متصفًا بالحلم، وأي حلم أعظم من الصبر على الذبح حين أخبره أبوه بأمر الرؤيا، فما كان منه إلا أن قال: [سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ] [5]، فاستسلم وأذعن لأمر الله، وقد كان الحلم من صفات

---

(١) [سورة النساء، الآية رقم ٩] .

(٢) ينظر: منهج التربية النبوية للطفل، لمحمد نور سويد (١/٥٤).

(٣) [سورة الشرح، الآية رقم٥].

(٤) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠١].

(٥) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٢].

إبراهيم عليه السلام، وصفه الله -تعالى- بالحليم في أكثر من موضع، فقال -تعالى- : [إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ] (١)، [إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ] (٢)، فبين أن ولده موصوف ببعض صفاته ألا وهو الحلم ، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة(٣). فلم يصف الله -تعالى- أحدًا من خلقه بصفة أعز من الحلم، وذلك حين وصف إسماعيل به، ويقال:" إن أحدًا لا يستحق اسم الحليم حتى يكون موصوفًا بالصلاح ، وذلك أن إبراهيم – صلوات الله عليه- دعا ربه فقال : [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ] فأجيب بقوله: [فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ]، فدل على أن الحلم أعلى مآثر الصلاح، والله -تعالى- أعلو أعلم"(٤).

فوصفه الله -عزوجل- بما أبقى صفاءه ونفى كدره فقال: [حَلِيمٍ]، أي: لا يعجل بالعقوبة مع القدرة؛ لأنه في غاية الرزانة والثبات، فيكون ذلك إشارة إلى حصول بلاء ما يتبين به أنه سر أبيه [إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ] {هود:٧٥}، والحلم لا يكون إلا بعد العلم، ورسوخ العلم سبب لوجود الحلم، وهو اتساع الصدر لمساوىء الخلق ومدانىء أخلاقهم"(٥)، وكانت منَّة الله -تعالى- على إبراهيم عليه السلام أعظم مما تخيل، منَّة عظيمة لعظم المبشِّر وهو الله – تعالى-، فالعطية على قدر معطيها، فتبع هذه البشارة بشارة أخرى أكمل الله- تعالى- بها سروره، وعَظُم بها فرحه، قال -تعالى- في سورة الحجر: [إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ

---

(١) [سورة التوبة، الآية رقم ١١٤].

(٢) [سورة هود، الآية رقم ٧٥].

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ، للرازي(٣٤٥/٢٦)، وغرائب القرآن ، ورغائب الفرقان ، للنيسابوري(٥٧٠/٥).

(٤) ينظر: شأن الدعاء، للخطابي (ص٦٤)

(٥) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي(٣٢٦/٦).

عَلِيمٍ][1]، وفي سورة الذاريات: [وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ] [2] ، وجعل الله – تعالى– في ذريته النبوة، [وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ] [3]، [وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا][4] ، فهذه بشارة من الله – تعالى– جزاء على صبره على ما أمر به"[5]، وجعل له عقبًا من بعده ، يقول الله– تعالى: [فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ] [6].

فبشرها الله – تعالى– بأنه سيولد لهذا المولود ولد في حياتهما، فتقر أعينهما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد العجوز قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم "يعقوب"، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله ﷻ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: [فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾][7]، وقال هاهنا: [وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا][8][9]، وقد وصف المبشَّر به بصفتين (العلم والحلم) ؛ وذلك

---

(١) [سورة الحجر، الآية رقم ٥٣].

(٢) [سورة الذاريات، الآية رقم ٢٨] .

(٣) [سورة الصافات الآية رقم ١١٢] .

(٤) [سورة مريم، الآية رقم ١١٢].

(٥) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (٢١٥/٤)

(٦) [سورة هود، الآية رقم ٧١] .

(٧) سورة مريم، الآية رقم (٤٩).

(٨) [سورة الأنعام، الآية رقم (٨٤).

(٩) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٦٦/٣).

لاختلاف الشخصين المبشر بهما، قال النيسابوري:" العليم إسحق لقوله: [فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ] [(١)]، والحليم إسماعيل"[(٢)].

فسبحان الحي الذي لا يموت، سبحان من بيده ملكوت كل شيء، ننظر إلى الصفة التي وصف بها إسماعيل أول مولود لإبراهيم بعد كِبر سنه، وعقم زوجته، ومفارقته لأهله، غلام حليم، و(الحلم) كما قال الراغب هو: " ضبط النّفس والطبع عن هيجان الغضب"[(٣)]، فينفي عن صاحبه مساويء الأخلاق، فلا يعاجلون بالانتقام من أعدائهم، إنما يكونون في سعة من الأخلاق.

الوجه الثالث:تأدبة حق النعمة – البشرى بالولد– بشكر الله –تعالى– عليها:

لم ينس إبراهيم عليه السلام شكر ربه على إنعامه عليه بالولد ، فكما رفع أكف الضراعة راجيًا ولدا صالحًا، ليقوم مقامه في الدعوة إلي الله – تعالى–، وبث الحنيفية، وإقامة الصلاة من بعده"[(٤)]، رفعها مرة أخرى بالشكر على هذه العطية التى تستحق الحمد وما أعظمها من عطية، فقال كما حكى القرآن عنه: [ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ][(٥)]، فهبتهم من أكبر النعم التي تستحق الحمد والشكر.

ابتدأ إبراهيم– عليه السلام– كلامه بـ(الحمد) إشعارًا بشكر النعمة وتقديرها، إذا أعطاه ولدًا حيث يستحيل ذلك عادة وعلى مجرى الأسباب المعروفة؛ إذ أم

(١) [سورة الذاريات، الآية رقم ٢٩].

(٢) ينظر: غرائب القرآن، ورغائب الفرقان ، للنيسابوري(٥/٥٧٠).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، مادة (حلم)، (ص٢٥٣).

(٤) ينظر: محاسن التأويل ، للقاسمي (٦/٣٢١)، بتصرف.

(٥) [سورة إبراهيم، الآية رقم٣٩].

إسحاق عجوز وزوجها شيخ هَرِم، حتى قيل: إنَّ سِنَّه عند البشارة بإسحاق كانت فوق المائة"[١].

والحكمة من ذكره عليه السلام حال الكبر في حمده لله- تعالى-؛ لما في ذلك من استعظام تلك النعمة، وشكرها، لأن الكِبر يقتضي عدم الإنجاب، فكان في ذكره ذلك إظهارًا لمعجزة الله -عزوجل- في ذلك.

فالمنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم"[٢]

فلفظ(الكِبَر) في الآية يدل على جلالة شعور ابراهيم- عليه السلام - بنعمة الله -تعالى- عليه ، لما في ذلك من خرق العادات ، بخرق الأسباب فهو شيخ كبير ، وامرأته عقيم، وقد ذكر في الشكر كلا ولديه ، لأنهما خلفاه ، وانحصرت فيهما وفي ذريتهما النبوة ، فكانت كل أنبياء بني اسرائيل من نسل اسحاق، وأن نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم- من ولد اسماعيل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، ففي تخصيصهم بالذكر معنى لطيف جميل؛ إذ لم تخرج النبوة من بيت ونسل أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-وقد جاءت عبارتة الضارعة التي تؤكد شكره للنعمة، فقال: [إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ] [٣] ، والدعاء هنا هو الضراعة إلى الله- تعالى-، وطلبه منه الولد، فقد طلبه، ودعا ربه به، فقد جاء في سورة الصافات أنه قال: [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ

(١) ينظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٤٠٤٢/٨).

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (٥٦١/٢).

(٣) [سورة إبراهيم، الآية رقم ٣٩].

قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾][1]، فهذه بشراه لإسماعيل ﷺ وكانت استجابة لدعائه، وكانت بعد ذلك في نفس السورة بشراه بإسحاق فقال سبحانه:[وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾] [2].

فقوله –تعالى– على لسان إبراهيم: [إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ] فيه ما يدل على أن ذلك كان بدعاء من الخليل واستجابة من الله– تعالى–، فقد أكد أن اللَّه سميع الدعاء أولًا: بالجملة الاسمية، وثانيًا بـ (إنَّ) المؤكدة، وثالثًا باللام في قوله: [لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ] وعبر بقوله: [إِنَّ رَبِّي] فيه أيضًا شعور بالشكر الجزيل لربه؛ لأنه الذي ربَّه وكوَّنه وقام على شئونه واستجاب دعاءه"[3]

<u>الوجه الرابع: طلب العون من الله–تعالى– في حفظ ذريته، والتمكين لهم في الأرض:</u>

إبراهيم ﷺ يتعهد أولاده وذريته بالدعاء بدأها بدعوة صادقة أن يرزقه الله الذرية الصالحة، ومن حرص إبراهيم ﷺ على أولاده ورغبة في استمرارهم على طريق الصلاح دعا الله ﷻ أن يحفظهم، وأن يمكن لهم الأسباب التي تعينهم على أداء العبادة ، فتضرع إلى الله أن يرزقهم أمن البلد الذي يعيشون فيه؛ لأن الغاية من التمكين في الأرض حصول الأمن، والتمكين في الارض يكون سببًا لإقامة شرع الله وتحقيق الصلاح. قال تعالى: [۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾][4].

---

(١) [سورة الصافات، الآيات ١٠٠: ١٠٢].

(٢) [سورة الصافات، الآيتان ١١٢، ١١٣].

(٣) ينظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٤٠٤٢/٨، ٤٠٤٣).

(٤) [سورة البقرة، الآية رقم ١٢٤].

والابتلاء: الاختبار، أى: اختبره ربه- تعالى- بما كلفه به من الأوامر والنواهي،...، وقوله: [فَأَتَمَّهُنَّ]،أى: أتى بهن على الوجه الأكمل، وأداهن أداء تاما يليق به ﷻ ولذا مدحه الله بقوله: [وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾][1]، وجيء بالفاء في [فَأَتَمَّهُنَّ]؛ للدلالة على الفور والامتثال وذلك من شدة العزم، وقوة اليقين...، وقال: [إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا]، ولم يقل: "إنى جاعلك للناس رسولًا"؛ ليكون ذلك دالًا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فإن إبراهيمﷺ قد رحل إلى آفاق كثيرة، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام، وإلى الحجاز، وإلى مصر وكان في جميع منازله أسوة حسنة لغيره"[2].

وقد جرى إبراهيم ﷺ على سنة الفطرة في دعائه هذا، فإن الإنسان حين يعلم أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها؛ ليكون له حظ من البقاء جسدًا وروحًا. ومن دعاء إبراهيم ﷺ الذي حكاه الله عنه في السورة المسماة باسمه [رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى] [3]، وقد راعى الأدب في طلبه، فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته بل لبعضها؛ لأنه الممكن وفي هذا مراعاة لسنن الفطرة أيضًا[4].

كان إبراهيم شفيقًا رفيقًا محبًا لأسرته، ولذلك لم يكتف بأن كان هو الإمام، بل أراد أن يكون إمام من ذريته يعمل بمثل عمله ويقتدى به في

---

(١) [سورة النجم، الآية رقم ٣٧].

(٢) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي (١/٢٦٥، ٢٦٦).

(٣) [سورة إبراهيم، الآية رقم ٤٠].

(٤) ينظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١/٣٧٥).

الهداية، فهو يطلب الهداية لذريته لا استئثارا بالمحبة ولكن بالتقوى والهداية؛ ولذلك قال مناجيا ربه: [وَمِن ذُرِّيَّتِي]، أي: اجعل يا رب العالمين من ذريتي أئمة صالحين يؤتمون ويقتدى بهم، فهو يدعو الله تعالى إلى أن تكون ذريته طيبة صالحة يقتدى بهم، فتكون خلفا له في الإمامة لا بمجرد الانتساب إليه بل لعملهم وتقواهم وإيمانهم بكلمات الله"(١).

ولكن الله- تعالى- العليم الذي يعلم كل شيء يعلم ماهو كائن، وما يكون أشار إلى أنه لن تكون ذرية إبراهيم عليه السلام كلها من الصالحين الذين يؤتم بهم، بل سيكون منهم الظالمون الذين يظلمون أنفسهم، وغيرهم بالمعاصي يرتكبونها، وبالشر يفعلونه ويطلبونه، ولذا قال- تعالى-: [لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ]، فالله -تعالى- أعطاه طلبه من جعل ذريته أئمة للناس ، ولكنه لم يعطها لجميع ذريته بل لبعضهم دون بعض ، لأن الإمامة لا تكون إلا لمن يصلح الاقتداء به والسير على نهجه ،وحاشاه -تعالى- أن يجعلها في الظالمين – لأنفسهم وغيرهم – ؛ لأنهم ليسوا من أهل الاقتداء.

ولما كان الحال أنهم لن يكونوا أئمة إلا إذا مكنوا في الأرض، فإذا مكنوا في الأرض أقاموا أوامر الله -تعالى-، وما افترضه عليهم، كما قال -تعالى-: [ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾](٢).

فهذا التمكين لن يكون إلا بتوفيق من الله ﷻ؛ لذا نجد إبراهيم عليه السلام سلك طريقة الخضوع لله -تعالى- ، فالإنسان بغير عون الله -تعالى- وهدايته وتوفيقه يكون عاجزًا مهما أوتي من قوة، فطلب ابراهيم-عليه السلام-

---

(١) ينظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (١/٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) [سورة الحج، الآية رقم ٤١].

من الله أن ييسر لهم السبل لإقامة شرعه ونشر دينه، فالإنسان دائمًا وأبدًا في حاجة إلى ربّه، فإظهار الحاجة لله –تعالى – وإعلان الافتقار إليه –تعالى– من الإقرار بعبوديته ، والاعتراف بربوبيته وتوحيده، وإشعارًا بعظمته –تعالى– وقدرته، وإظهارا لعجز الإنسان وضعفه فيلجأ إلى صاحب السلطان ، والجاه والقدرة المطلقة.

فقال عليه السلام في دعائه:" [رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾][1]

الأمن من أعظم نعم الله –تعالى– على عباده ، فما أنعم الله –تعالى– على عبد بعد توفيقه إلى الدين القويم ، وهدايته إلى الطريق المستقيم، أعظم من نعمة الأمن سواء كان هذا الأمن نفسيا أو فكريا أو مجتمعيا، فالأمن يحقق الهدف والغاية من خلق الإنسان ، وهي عبادته وحده لا شريك له فالإنسان إذا أمن على نفسه، وماله. وعرضه ، توجه إلى خالقه بنفس مطمئنة خاشعة خاضعة ، فأقام أمره ، وصلح حاله (ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)، وإذا فقدها الإنسان، اضطرب فكره، وقلبه ، فيصعب عليه في هذه الحال التفرغ لأمور دينه ودنياه بنفس صافية مطمئنة ، وبقلب مقبل على خالقه ، فلا يجد في قلبه شوق ولا وجد، ولا في روحه حضور واستئناس واشراق، ولا في مناجاته طمأنينة وسكون وانكسار، فإذا عبد الله –تعالى– وحاله كذلك فلا يناله من

([1])[سورة إبراهيم، الآيات ٣٥: ٣٧].

العبادة إلا قشورها، فالعقل شارد والقلب خائف، والشارد الخائف لا يجد لذة المناجاة ، ولا يستشعر جلال ربه وعظمته، ولايرى عظيم رحمات ربه به .

لذا نجد أن إبراهيم – عليه السلام – استعان بالله –تعالى– وطلب هدايته له ولبنيه من بعده ، فقال: [رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾] {إبراهيم:٣٥} ،وقال :[رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا] {البقرة:١٢٦} ، فطلب إبراهيم – عليه السلام للأمن يقع على نوعين :

الأول: الأمن النفسي ، وذلك بإزالة الخوف عن نفسه وأهله وولده ، وجعلهم آمنين هادئين مستقرين ، وهذا لا يمكن إلا بالتوحيد فقال: [وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾][1]، والمتطلب الأساسي لهذا النوع من الأمن ،أن يجنبه الله –تعالى– وبنيه عبادة الأصنام ؛ وذلك لما في عبادتها من فتنة عظيمة،فاستعان بالله على عدم الوقوع في الشرك بعبادتها ؛ ليبين لنا إبراهيم – عليه السلام– في هذه الدعوة الهامة أن الإيمان نعمة عظيمة تسحق الشكر ؛ لأنه سبب استقرار الإنسان وطمأنينته في الدنيا وسعادته في الآخرة ؛ لذا كانت وصية الأنبياء والصالحين لأبنائهم بالثبات على الإيمان وعدم الوقوع في الشرك من أهم الوصيا ؛ فنجد إبراهيم ويعقوب –عليهما السلام – وصوا بها ، قال –تعالى–: [وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ][2] ووصى بها لقمان – عليه السلام ابنه وهو يعظه فقال: [يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ][3] .

---

(١) سورة إبرهيم : الآية (٣٥).

(٢) سورة البقرة : الآية (١٣٢).

(٣) سورة لقمان : الآية (١٣).

فقد تضرع -عليه السلام- بأن يعصمه الله -عزوجل- وبنيه من عبادة الأصنام؛ لأنها كانت سببًا في إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق، وعن الهداية إلى الصراط المستقيم.

والمتأمل يجد أن هذه الدعوة من إبراهيم -عليه السلام- صدرت عنه لعلمه بخطورة هذه الأصنام والأوثان التي اتخذها الناس على مر العصور أربابًا من دون الله -تعالى- فخاف على نفسه وأولاده من بعده أن يقعوا في هذا النوع من الفتنة ، التي وقع فيها الكثير ممن سبقوهم ، وسيقع فيها الكثير ممن سيأتي بعدهم، وتكون سببًا لورودهم مورد الهلاك ، قال -تعالى- : [وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ][1]

وأراد(ببنيه) أبناء صلبه، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق، فهو من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميمًا في الخير فاستجيب له في البعض،...، وجملة [إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ]تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها بأنها ضلال راج بين كثير من الناس، فحق للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها، وذلك أن إبراهيم- عليه السلام- خرج من بلده إنكارًا على عبدة الأصنام، فقال: [وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ][2]، وقال لقومه: [وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ][3]، فلما مر بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء عربة تهامة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام ثم أقام هنالك مَعْلَم التوحيد. وهو بيت الله الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى التوحيد، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية

---

(1) سورة إبراهيم : الآية (٣٠)

(٢) [سورة الصافات، الآية رقم ٩٩].

(٣) [سورة مريم، الآية رقم ٤٨].

للتوحيد. فلا جرم أن يسأل أن يكون ذلك بلدًا آمنا حتى يسلم ساكنوه، وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقنوه أصول التوحيد"[١].

فالإيمان يخرج الإنسان من حيرة التفرق والتمزق ، إلى طمأنينة الوحدانية والإقرار لله –تعالى– بالعبودية ، فيسعد بذلك في دنياه وآخرته ؛ لأن الله –تعالى– وعد بمغفرة كل الذنوب لمن شاء إلا الشرك قال –تعالى–: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء.

الآخر: أمن المكان ، وذلك بالدعاء لمكة بالأمن والاستقرار ، فقال: [رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا] {إبراهيم:٣٥}، [رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا] {البقرة:١٢٦}، وذلك لأن الفوضى وعدم الأمن يمنعان الإنسان من القيام بالخلافة والعبودية الحقة لله –تعالى– على الوجه الذي يرضاه، فلا حياة ولا سكن ولا مجتمع متماسك إلا في وجود الأمن والأمان.

سئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه : أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ولا يمنعها هذا الكسر من الإقبال على الرعي والأكل والشرب"[٢].

ولكى تنتظم الحياة ، وتطمئن القلوب، ويؤدى شرع الله ، جاءت دعوة إبراهيم عليه السلام أن يجعل قلوب الناس تهوي هذاالمكان، وتتلهف إلى زيارته، وهمه أن يقيموا الصلاة عند بيت الله المحرم، قال– تعالى–: [رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ] [٣]

(١) ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٢٣٨/١٣، ٢٣٩).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (١٠٤/١٩).

(٣) [سورة إبراهيم، الآية ٣٧].

لايمكن للفرد أن يحيا حياة مستقرة إلا إذا انخرط في جماعة ، ولا تتأتى الغاية المرجوه ولا تكتمل إلا في مجتمع سوي مستقر قوي الدعائم ، فيستأنس ، ويتعارف ويتآلف؛ لذا نجد أن ابراهيم- عليه السلام- دعا ربه بأن يعمر هذا البلد ويكثر أفراده بتكثير أعداد الوافدين عليه في شوق ومحبة ، حتى تتحقق الغاية المرجوة وهي إقامة الصلاة ، قال -تعالى-: [رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ] ، فالعلة من طلب العمران وتكثيره، وجعل هذا البلد الأمين مهوى الأفئدة إقامة الصلاة ، ولا يمكن للعبد أن يقيمها ،ولا غيرها من شرع الله -تعالى- إلا إذا ضمن استمراره وبقائه ، ولا يكون ذلك إلا في اجتماعه وأنسه وأمنه.

فقد جعل الله -تعالى- التمكين في الأرض سبب لإقامة الصلاة، كما قال -تعالى-:[ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾][1].

وقد خص عليه السلام الصلاة بمزيد من الاهتمام فدعا ربه أن يجعله مقيمًا للصلاة ويعين ذريته على أدائها وإقامة أركانها وعدم التكاسل عنها، فقال: [رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾][2].

وقد خص الصلاة من بين فرائض الدين؛ لأنها العنوان الذي يمتاز به المؤمن من غيره؛ ولما لها من المزية العظمى فى تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن[رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ] المراد بالدعاء العبادة ، أي: ربنا تقبل عبادتى، كما جاء فى قوله: [وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) [سورة الحج، الآية رقم ٤١].

(٢) [سورة إبراهيم، الآية رقم ٤٠].

وَٱدۡعُواْ رَبِّي][(١)]، وجاء في الخبر عن رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة ثم قــرأ. [وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾][(٢)][(٣)]»[(٤)] . فالصلاة عماد الدين.

وقد استجاب الله لدعاء إبراهيم ﷺ، فقال ﷻ: [إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾][(٥)]، وقال أيضًا: [أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾][(٦)].

<u>الوجه الخامس: معاملته ﷺ لإسماعيل وطريقته الراشدة في عرض الرؤيا عليه،والصبر على هذا الابتلاء.</u>

كان إسماعيل ﷺ فرحة إبراهيم الكبرى، فعندما جاء أمر الله – تعالى– لنبيه إبراهيم بذبح ابنه برؤيا رآها في منامه، استجاب لربه وامتثل أمره فلم يتوان إبراهيم ﷺ بتصديق هذه الرؤيا رغم صعوبتها، ومبادرته بالطاعة لأمر الله – تعالى– ؛ لأنه يعلم أن رؤيا الأنبياء حق، فمقام النبوة هو أعلى مقامات العبودية والإذعان لأوامره– تعالى–، فسارع إلى طاعة الله ﷻ وشد الرحال إلى ابنه لتنفيذ أمر الله فيه، فقال كما أخبرنا الله –تعالى–: [يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ] [(٧)]، والناظر في هذا النداء يجد أن إبراهيم ﷺ قد صدر

---

(١) [سورة مريم، الآية رقم ٤٨].

(٢) [سورة غافر، الآية رقم ٦٠].

(٣) أخرج هذا الحديث أحمد في مسنده، من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، برقم (١٨٣٥٢)، (٢٩٧/٣٠، ٢٩٨)، وقال محققه:" إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين".

(٤) ينظر: تفسير المراغي (١٦٢/١٣)

(٥) [سورة آل عمران، الآية رقم ٩٦].

(٦) [سورة العنكبوت، الآية رقم ٦٧].

(٧) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٢].

نداءه لابنه بقوله: [يَٰبُنَيَّ]، وهو نداء شفقة ورحمة، ثم شاوره في أمر الرؤيا التي رآها فقال: [فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ] من الرأي على وجه المشاورة لا من رؤية العين، ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر[١]، وهذا من باب أن يوطن الأب ابنه على طاعة الله، فلو امتنع إسماعيل وقدر إبراهيم على كبحه لذبحه، لكنه أراد أن يشتركا سويًا في الأجر[٢]. فكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته، لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول؛ لأنه أعلم بصلاح ابنه، وليس إبراهيم مأمورًا بذبح ابنه جبرًا، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين:

أحدهما: بتلقي الوحي.

الآخر: بتبليغ الرسول إليه.

فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتبر كافرًا [٣].

ومن هنا نعلم أن الحكمة من مشورته –عليه السلام– لابنه في أمر الذبح وهو أمر حتم من الله –تعالى– لازم النفاذ ، لم يكن أبدا القصد منه الرجوع إلى رأيه ومشورته ؛ لأنه حتى وإن أبى سيقع مراد الله –تعالى – كما أراد ، ولكن كان الغرض أن يستكشف عن مكنون نفسه فيما نزل به من أمر الله –تعالى– وبلائه، فيكون له عونًا وناصرًا على الاستسلام والخضوع في تنفيذ ابتلاء له بالذبح ، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها، ويلقى البلاء

(١) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي (١٣١/٣).

(٢) ينظر: معالم بيانية في آيات قرآنية، لأبي هاشم المغامسي (٢/٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦٤/٢٣).

وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله: ولأنّ المغافصة [١] بالذبح مما يستسمج، وليكون سنة في المشاورة [٢].

يقول الامام الرازي:" الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالمية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا"[٣].

وكان أمر الله لإبراهيم عليه السلام بذبح إبنه إسماعيل أمر ابتلاء، وقد برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكرامًا لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة؛ لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها، إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحي [٤].

وقد تجلت الطاعة والمسارعة إلى تنفيذ أمر الله- تعالى- من إسماعيل عليه السلام ، فقال كما أخبرنا الله عز وجل: [يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢][٥].

وكانت حكمة الله –تعالى- من أمر نبيه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل : أنه لما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر

---

(١) يقال: غافصت الرجل، أى: أخذته على غرة. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (غفص)، (٣/١٠٤٧).

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (٤/٥٤).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٦/٣٥٠).

(٤) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٦].

(٥) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٢].

في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل- عليه الصلاة والسلام- إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود فرفع الذبح، وفدي بذبح عظيم، فإن الرب -تعالى- ما أمر بشيء، ثم أبطله رأسًا، بل لا بد أن يبقي بعضه أو بدله، كما أبقى شريعة الفداء"[١].

الوجه السادس:وصيته عليه السلام لأبنائه بالموت على الإسلام:

ذكرنا في بداية هذا المطلب أن علاقة إبراهيم عليه السلام بأولاده بدأت من قبل أن يوجدوا في هذه الحياة، واستمرت هذه العلاقة في حياته ولم تنته بعد وجوده، فقداهتم بتعليمهم العقيدة ودعوتهم إليها.

قال- تعالى- : [وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾][٢].

فرغبهم عليه السلام في الدين، وطلب منهم أن يحسنوا في حال الحياة، ويلزموا هذا الدين ليرزقهم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع،

---

(١) ينظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (١٩٠، ١٩١).

(٢) [سورة البقرة، الآية ١٣٢].

فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[١]، وقد قال الله- تعالى-: [فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾] [٢][٣].

وهذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين منها:

الأولى: أنه تعالى لم يقل وأمر إبراهيم بنيه بل قال: وصاهم ولفظ الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتمًا بهذا الأمر متشددًا فيه، كان القول إلى قبوله أقرب.

الثانية: أنه عليه السلام خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم، فلما خصهم بذلك في آخره عمره، علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره.

الثالثة: أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحدًا منهم بهذه الوصية، وذلك أيضا يدل على شدة الاهتمام.

الرابعة: أنه عليه السلام أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدل أيضا على شدة الاهتمام بهذا الأمر.

الخامسة: أنه عليه السلام ما مزج بهذه الوصية وصية أخرى، وهذا يدل أيضًا على شدة الاهتمام بهذا الأمر، ولما كان إبراهيم عليه السلام هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر،

---

(١) جزء من حديث أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه، كتاب: (القدر)، باب: (في القدر)، برقم (٦٥٩٤)، (١٢٢/٨).

(٢) [سورة الليل، الآيات ٥: ١٠].

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣١٩/١).

عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام، وأجراها بالرعاية، فهذا هو السبب في أنه خص أهله وأبناءه بهذه الوصية، وإلا فمعلوم من حال إبراهيم عليه السلام أنه كان يدعو الكل أبدا إلى الإسلام والدين(١).

والمراد من قول إبراهيم عليه السلام لأبنائه: [فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾](٢)، أي: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في صلاته(٣)، فالإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال- تعالى-: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾](٤)، والآيات في هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ : «نحن معشر الأنبياء أولاد علات (٥) ديننا واحد»(٦)(٧).

فينبغي لنا معاشر الأسر المسلمة المسؤلين عن النشء أن نتعهدهم بما تعهد به إبراهيم عليه السلام بنيه، وأن نتبع منهجه الذي رسمه لنا القرآن وبينت

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٦٤/٤).

(٢) [سورة البقرة، الآية رقم ١٣٢].

(٣) ينظر: مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل ، للنسفي(١٣٢/١).

(٤) [سورة الأنبياء، الآية رقم ٢٥].

(٥) أولاد العلات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، أراد: أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٢٩١/٣).

(٦) أخرجه بلفظ مقارب البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: قَوْلِ اللَّهِ [وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾] [سورة مريم، الآية ١٦] ، برقم (٣٤٤٣)، (١٦٧/٤).

(٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٢٠/١).

حياة هذا النبي الكريم تفاصيله ليكون خير قدوة ومثل؛ فينبغي على الآباء أن يكونوا في غاية الحرص على أبنائهم بتوجيههم وإرشادهم على اتباع دين الله والتمسك به، فإن هذا خير ما يقدمه الوالد لولده ؛ إذ به ينقذه من سخط الله وعذابه، ويضعه في محل رضوانه ومحبته ﷻ.

كما أن من فوائد الاهتمام بصلاح الأولاد الإبقاء على صلاح الذرية التي تعقبهم من بعدهم في الأغلب، لأنهم هم كذلك سيهتمون بأبنائهم هذا الاهتمام؛ لكونهم على طريقة آبائهم من الصلاح والدعوة اليه(١).

* * *

المطلب الثالث

علاقته عليه السلام بذوى القربى والأرحام.

ينبغي على المسلم أن تكون علاقته بأقاربه وذوي رحمه قائمة على البر والإحسان والصلة، يتفقد أمرهم ويواسيهم، فضلا عن إسداء النصح لهم، والدفاع عنهم، ومناصرتهم، وهذا ما نراه واضحًا جليًا من حال إبراهيم عليه السلام من مجادلته لرسل الله من الملائكة الذين جاءوا مبشرين بالولد ومنذرين بعذاب قوم لوط، ولما كان لوط عليه السلام أحد الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام حين كفر به الناس، وهاجر معه الأمر الذي جعل إبراهيم عليه السلام يسأل الملائكة ويراجعهم ويجادلهم مرارًا وتكرارًا في شأن قوم لوط عليه السلام .

وقد وردت الكثير من الآيات القرآنية الدالة على سؤال إبراهيم عليه السلام الملائكة ومجادلته إياهم في أمر لوط عليه السلام ولنا في إبراهيم عليه السلام مثل وقدوة فلما ذهب عنه خوفه وفزعه من أمر الملائكة وما بشروه به من أمر إسحاق عليه السلام ، ومع ذلك لم ينسه ذلك حال ابن أخيه، وذلك لما دعا لوط على

---

(١) ينظر: القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء، لعماد زهير حافظ (١/١٦٥).

قومه بقوله: [رَبِّ ٱنصُرۡنِي ﴿٣٠﴾][1]، استجاب الله دعاءه، وأمر ملائكته بإهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاؤا إبراهيم عليه السلام وبشروه بذرية طيبة ، وقالوا: [إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ][2] يعني: أهل سدوم[3].

ولما كان لوط عليه السلام أحد الذين آمنوا بإبراهيم وصدقوه من أهله وهاجر معه فآمن له لوط، فضلا عن كونه ابن أخيه، فلما رأى ما سيحدث لهم خاف على لوط عليه السلام ؛ لذا جادل إبراهيم الملائكة في أمر لوط، وكانت مجادلته لهم ما قصه الله تعالى في سورة العنكبوت؛ حيث قال- تعالى-: [وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾][4].

فالمتدبر في هذه الآيات يجد أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يسأل عن البشرى، مع أنه كان متلهفًا عليها، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية، وفيها ابن أخيه لوط. لذلك قال: [إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ] وهذا يدلُّ على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن مخافة الشر لغيره، وهنا جاء ردَّ الملائكة [نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ][5].

---

(١) [سورة العنكبوت، الآية رقم ٣٠].

(٢) [سورة العنكبوت، الآية رقم ٣١].

(٣) سدوم: بفتح أوّله: مدينة من مدائن لوط . ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٣/٧٢٩).

(٤) [سورة العنكبوت، الآيتان رقم ٣١، ٣٢].

(٥) ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر (١٨/١١١٤٧، ١١١٤٨).

فقول إبراهيم عليه السلام للملائكة: [إِنَّ فِيهَا لُوطًا] ليس المراد به إخبارهم بكون لوط في القرية، وإنما هو جدال في شأنه؛ لأنهم ذكروا أن أهلها سيهلكون بسبب إمعانهم في الظلم، فاعترض عليهم بأن فيها من هو بريء الساحة من الذنب، لم يجترح ذنبًا، ولم يقترف إثمًا، ولم يشارك قومه فيما هم ممعنون فيه من غي وارتكاس، وفي هذا كله أيضًا إشارة إلى أن من واجب الإنسان المؤمن التحزب لأخيه، والتشمير في نصرته وحياطته، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر(١).

لما سمع إبراهيم-عليه السلام - قولهم، قال لهم :[إِنَّ فِيهَا لُوطًا] إشفاقًا عليه ليعلم حاله، أو لأن الملائكة لما قالوا: [إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ] وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قومًا وفيهم رسوله، فقال تعجبًا [إِنَّ فِيهَا لُوطًا] فكيف يهلكون، فقالت الملائكة [نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا]، يعني: تعلم أن فيهم لوطًا فلننجينه وأهله ونهلك الباقين(٢).

ومما يدل أيضًا على مجادلة إبراهيم عليه السلام الملائكة في قوم لوط عليه السلام ما أخبرنا الله به ﷻ في سورة هود؛ حيث قال- تعالى- : [فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾](٣)، والمعنى: يسألنا في نجاتهم سؤالاً يحرص فيه حرص المجادل في صرف الشيء ، من الجدل وهو الفتل ، ووضع المضارع موضع الماضي إشارة إلى تكرر المجادلة مع تصوير الحال، أي جادلنا فيهم جدالاً كثيراً(٤).

---

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (٤٥٦/٣).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٥١/٢٥).

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٤/١٨).

(٤) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥٥٥/٣).

ولم ييأس إبراهيم عليه السلام من مجادلة ومراجعة الملائكة حرصًا على لوط عليه السلام، ورجاءً في إيمان قومه، ولم يكف عن المجادلة إلا بعد أن بين الله تعالى له أن قضاء الله قد نفذ بإهلاكهم وقضاء الله لا يرده راد، قال تعالى: [يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦][1]، أي: يا إبراهيم أعرض عن الجدال فى أمر قوم لوط والاسترحام لهم، إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وإنهم آتيهم عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده بجدل ولا شفاعة ولا بغيرهما.

* * * * *

(١) [سورة هود، الآية رقم ٧٦].

المطلب الرابع

معاملة إبراهيم عليه السلام لضيوفه وإكرامه لهم، وعلاقته في بيان التماسك والتكاتف الأسري .

إكرام الضيف مكرمة من مكارم الأخلاق، وخصلة من خصال الخير، وهو من شيم العرب قبل الإسلام، وخلق أكيد من أخلاق الإسلام، ومن إكرامه تلقيه بطلاقة الوجه، وتعجيل قراه، والقيام بالنفس في خدمته، مما يدل على سماحة في النفس، وكرم في الطبع، وهو سنة من سنن المرسلين، وقد حث الدين الإسلامي على الإحسان في معاملة الضيف، فقد جاء في الحديث: " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ"(١)، فالضيف الوافد على الإنسان له حق الضيافة، وحق الإكرام، والمتأمل في الآيات القرآنية التي وردت الإشارة فيها إلى ضيف إبراهيم عليه السلام يجده قد قام بالأمرين على أكمل وجه؛ حيث حكى لنا القرآن الكريم قصة نبي الله إبراهيم عندما جاءته الملائكة بصورة بشرية ونزلوا عليه ضيوفًا فما كان منه عليه السلام إلا أن أسرع إلى إكرامهم مع عدم معرفته لهم، فقدَّم لهم عجلًا سمينًا مشويًا مبالغة في إكرامهم، ثم قرَّب الطعام إليهم ولم يدعهم إليه ليكون ذلك أدعى إلى الإكرام، قال- تعالى-: [هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾](٢).

فالناظر في هذه الآيات يجد أن الله تعالى- حدثنا- عما جرى بين إبراهيم عليه السلام وضيوفه من الملائكة، فقال: [إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ]، أي: على إبراهيم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيح الأدب المفرد، باب : الْوَصَاةِ بِالْجَارِ، (ص٦٥).

(٢)سورة الذاريات، [الآيات رقم ٢٤: ٢٧].

ﷺ [فَقَالُواْ سَلَٰمًا]، أي: نسلم عليك سلامًا [قَالَ سَلَٰمٌ]،أي: عليكم سلام، ولا شك أن رَدَّ التحية هو الذي يقتضيه الإكرام. فلما وصفهم بأنهم مكرمون ناسب ذلك ذكر رد التحية، فإنه من إكرامهم، فهو حياهم بالسلام الشامل الثابت الدائم فيكون قد حياهم بخيرٍ من تحيتهم(١).

فقول إبراهيم[سَلَٰمٌ]أبلغ من قول الملائكة [سَلَٰمًا]؛ لأن قول الملائكة [سَلَٰمًا] يعني: نسلم سلامًا، وهو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث. وقول إبراهيم: [سَلَٰمٌ] جملة إسمية تدل على الثبوت والاستمرار فهو أبلغ(٢).

فالعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذًا بأدب الله وهذا أيضاً من إكرامه لهم"(٣)، فخليل الرحمن اختار الأفضل.

ومما يدل أيضًا على آداب الضيافة، وإكرامه الضيف انصرافهﷺ في خفية مسرعًا ؛ لئلا يمنعوه من إحضار الطعام لهم، وخدمته لهمﷺ بنفسه؛ حيث جاءهم ﷺ بعجل سمين كامل، ثم قربه إليهم وهذا من تمام كرمه. وقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك ، فقال ﷻ: [فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ]، والمعنى: أنه راغ إلى أهله ليجيئهم بنزلهم، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به الضيف وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في خفاء بحيث لا يشعر به الضيف فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام(٤). وذهاب إبراهيم إلى أهله ومجيئه بالضيافة يدل على أن ذلك كان معدًا عندهم

---

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، لفاضل السامرائي (ص٨٤)

(٢) ينظر: شرح رياض الصالحين (١٩٢/٢).

(٣) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي (٣٧٦/٣)

(٤) ينظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لابن القيم (ص٢٧٢).

مهيئًا للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه(١).

وقال ابن القيم:"[فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ] دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل فأمر لهم بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف"(٢).

ومما يؤصل ويؤكد التعاون بين الأسرة في خدمة الضيف قوله – تعالى- [فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ]،والمراد بأهله في ذلك الوقت هي زوجته ؛ لأنها عاونته ، كما قال –تعالى-: (وامرأته قائمة) أي: في خدمتهم، فالأصل بين الزوجين التوادد والتراحم ، ومرعاة كل منهم للآخر، والمرأة الصالحة توقن بأن ترابط الأسرة يبدأ من تقواها لربها ، وطاعتها لزوجها ، وحرصها الدائم على إسعاده ، وزوج إبراهيم – عليه السلام- ضربت لنا مثلاً رائعا للزوجة التي تعين زوجها على طاعة ربه، وذلك بمساعدته في إكرام ضيفه وقيامها مع زوجها جنبا إلى جنب في تقديم الطعام له ، والبشر بقدومهم..

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله- تعالى-: [فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ]:

" تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولًا فقال: نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي،فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون على سبيل

(١) ينظر: المرجع السابق (ص٢٧٢).

(٢) ينظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لابن القيم (ص٢٧٣).

العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل"[١].

وبهذا يكون إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل في حسن الضيافة، وحسن الضيافة من المعروف ، وكل معروف صدقة فاصنع للناس خيرًا ومعروفًا، واعلم أن هذه صدقة تثاب عليها ثواب الصدقة[٢]

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٩٣/٧).

(٢) ينظر: شرح رياض الصالحين (١٩٤/٢).

المبحث الثاني: أزواج إبراهيم عليه السلام ودورهم في الأسرة، واشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: سارة عليها السلام.

المطلب الثاني: هاجر عليها السلام.

المطلب الأول:

سارة عليها السلام.

زوج خليل الرحمن هي: سارة بنت هاران ،كما جاء ذكرها في السنة النبوية المشرفة.

وهي التي آمنت به وقت أن كفر به قومه، وصدَّقت به حين كذبه الناس، فآزرت ونصرت، وكانت لزوجها نعم التابع والنصير، وقد كان لسارة دور بارز فعال في حياة أسرة إبراهيمعليه السلام ، فكانت نعم الزوجة المؤمنة المنقادة لأمر ربها المطيعة لزوجها، والتي آثرت سعادته على سعادتها، ورضي الله – تعالى– على مساكنتها لقومها وأهلها، فسعادة الزوجة الصالحة أن ترى زوجها سعيدًا قرير العين، طائعًا لله –تعالى– وتعينه على ذلك.

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم القلائل التي أشارت إلى سارة – عليها السلام– نجدها تلقي الضوء على العديد من المواقف البارزة في حياتها التي كان لها الأثر الفعال في النهوض بالأسرة والارتقاء بها على دعائم الإيمان، وعلى أساس المشاركة والموازرة والمناصرة، من هذه المواقف ما يلي:

أولًا:إيمانها بإبراهيم عليه السلام وهجرتها معه إلى أرض مصر.

سارة– عليها السلام– من القلائل الذين ذكروا في القرآن الكريم ولذلك لم يرد في القرآن الكريم ما يدل صراحة على إيمانها – عليها السلام – ولكن قد جاء وصفها بأنها من آل بيت إبراهيم عليه السلام في قوله –تعالى– بعد البشارة بإسحاق: [قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾][1].

(١) [سورة هود، الآية رقم ٧٣].

فالزوجة الصالحة هي التي تطيع زوجها فيما يرضي الله –تعالى– يقول –تعالى–: [فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴿٣٤﴾] (١)، وقد ضربت لنا السيدة سارة– عليها السلام– خير مثال للطاعة والانقياد لزوجها فيما أمره الله به، فقد خرجت معه من أرض قومها وتركت أهلها وعشيرتها ابتغاء رضى الله –تعالى– وما كان ذلك إلا ثقة بما أخبرها به زوجها عن ربه ، فها هي تطء بقدميها أرض لم تألفها ، وكانت ذات جمال ، فأرادها مَلِكِها لنفسه، ومع ضعفها وقلة حيلتها كانت إرادة الله – تعالى– أن يمنع عنها شر هذا المَلِكْ من أن يصل إليها، أو يمسها بسوء ، فنجت بأمر الله– تعالى–: [وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ] (٢)، مع ماكانت فيه من الضعف والغربة عن الأهل والعشيرة الذين هم من أهم أسباب المناصرة والتناصر، ولم يكتف بتركها بل أهداها خادما يقوم على خدمتها(٣)، وهذا من رحمة الله –تعالى– بإبراهيم وأهل بيته .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال:" قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ ، أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: لاَ تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ "، قَالَ الأَعْرَجُ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ:

---

(١) [سورة النساء، الآية رقم ٣٤].

(٢) [سورة المدثر، الآية رقم ٣١].

(٣) ينظر: قصص القرآن ، لمحمد جاد المولى ، وأخرون (٤٨/١) ملخصًا.

" قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ "، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: " فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا آجَرَ فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً"(١).

وقد أقامت سارة – عليها السلام– مع زوجها فترة من الزمان بمصر ثم هاجروا مرة أخرى قاصدين فلسطين تلك الأرض المقدسة(٢).

ثانيًا: القيام بأمر بيتها وإكرام ضيف زوجها:

فها هي سارة –عليها السلام– يخبر القرآن الكريم عنها عقب الإخبار عن ضيف إبراهيم عليه السلام بقوله: [وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ] (٣)، أي: وكانت امرأة إبراهيم واقفة للخدمة، ومما يدل على مزيد كرمها ووفائها التعبير بالجملة الإسمية التي تفيد الثبات والدوام، فهي – عليها السلام– ملازمة لخدمة ضيوف زوجها ، وهذا يدل على أن هذا الكرم العظيم ، وراءه زوجة كريمة نبيلة؛ فكأنه كان من عادتهم وعادة العرب من بعدهم أن المرأة تكون خادمة القوم وتقدم الطعام إليهم ، أو تكون هي المباشرة لصنعه وتهيئته ، فتكون بذلك مشاركة لخدمة القوم بصنعها لهم وتقديمه إليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب : البيوع – باب: شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه – حديث رقم (٢٢١٧) (٣/٨٠).

(٢) ينظر: قصص القرآن، لمحمد جاد المولى ، وأخرون (١/٤٨).ملخصًا.

(٣) [سورة هود، الآية رقم ٧١].

فهذه الآية تدل على جواز خدمة المراة ضيوف زوجها، ومن يدعوهم إلى بيته ومجلسه إذا أمنت الفتنة ،ومع مراعاة ما يجب عليها من التستر في مثل هذه المواقف .

قال ابن عاشور:" وجملة [وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ] في موضع الحال من ضمير(أوجس) ، لأن امرأة إبراهيم عليه السلام كانت حاضرة تقدم الطعام إليهم، فإن عادتهم كعادة العرب من بعدهم أن ربة المنزل تكون خادمة القوم"[١].

وقيل المراد بقوله –تعالى– [وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ] أي: قائمة عند تحاورهم وراء الستر ، فكانت واقفة ترقب ما يكون بين إبراهيم وهؤلاء الضيفان الذين جاءوا إليه على تلك الصورة التي أخافته[٢]

يدل على ذلك قوله –تعالى–: [فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ][٣] أي : ذهب إلى ساره – عليها السلام– في خفية من ضيوفه [فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ] فجاء ضيفَه بعجل سمين قد أنضجه بنفسه شيًا[٤] ، بدليل قوله –تعالى– في آية أخري [فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ][٥] ، مع معاونة زوجته من وراء الستر. وهذا فيه مدحٌ للزوجة الكريمة، صاحبة الهمة والمهارة والسرعة في إعداد الطعام، ومدح الله– تعالى– طهيها، الذي يدلُّ على طيب نفسها.

[فَضَحِكَتۡ] سرورًا بالأمن من الخوف، أو لقرب عذاب قوم لوط لكراهتها لسيرتهم الخبيثة[٦]، وهو الراجح.

---

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١١٧١/٦)
(٣) سورة الذاريات : الآية (٢٦).
(٤) ينظر تفسير الطبري(٤٢٥/٢٢).
(٥) سورة هود الآية (٦٩).
(٦) ينظر: تفسير المراغي (٥٩/١٢).

وقيل:ضحكت تعجبًا من أنَّها وزوجها إبراهيم يخدمان ضِيفانهم بأنفسهما، تكرمةً لهم، وهم عن طعامهم ممسكون لا يأكلون[١] .

ثالثًا: الصبر على ابتلاء الله لها بالعقر

من أهم الأمور التي تجلب الشعور بالخوف من المستقبل أن تكون المرأة عاقرًا، فتأخر الإنجاب ليس بالأمر الهين، فهو كفيل بأن يكون نارًا تحرق وتدمر ، ولكن تهون المصيبة عندما يكون الزوجان من أهل الإيمان بالله- تعالى-، فهذا أمر قدَّره الله على بعض الأزواج لحكمة يعلمها الله قال تعالى: [لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا][٢].

فعلى المسلم أن يحتسب الأجر بالصبر على كل مصيبة، قال- تعالى-: [وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾] [٣].

ولنا فيما حدث مع سارة -عليها السلام- عبرة وعظة، وإظهارًا لقدرة الله -تعالى-، فقد صبرت واحتسبت الأجر عند الله فجزاها الله خير الجزاء ، قال تعالى:[إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾] [٤]، وقال – تعالى- مبينًا هذا الجزاء [وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾] [٥]

---

(١) ينظر : تفسير الطبري(١٨/٣٨٦).

(٢) [سورة الشورى، الآيتان رقم ٤٩، ٥٠].

(٣) [سورة البقرة، الآية رقم ٤٥] .

(٤) [سورة الزمر، الآية رقم ١٠] .

(٥) [سورة هود، الآيات رقم ٧١: ٧٣].

وحكى القرآن الكريم عنها في موضع آخر، فقال ﷻ : [فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾][1]، فالمتدبر في هذه الآيات يجد أن سارة- عليها اسلام- زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام ذكرت كما في الآيات الأولى التي في سورة هود سببًا من أسباب منع حملها وهو قوله ﷻ عنها: [وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا]، وفي آيات سورة الذاريات ورد سببان آخران هما [عَجُوزٌ عَقِيمٌ] و (عجوز) على وزن فعول يستوي فيها المذكر، والمؤنث[2]، و (عقيم) معناها أنها امرأة لا تلد[3]، وقد ذكر الله- تعالى- هذه الأسباب متفرقة.

وقد أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،- قَالَ: "كَانَتْ سَارَةُ بِنْتَ تِسْعِينَ سَنَةً، وَإِبْرَاهِيمُ ابْنَ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِإِسْحَاقَ، وَأَمِنَ مِمَّنْ كَانَ يَخَافُهُ، قَالَ: " [ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾][4]، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَى سَارَةَ بِالْبُشْرَى، فَقَالَ: «أَبْشِرِي بِوَلَدٍ يُقَالُ لَهُ إِسْحَاقُ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ» قَالَ: فَضَرَبَتْ جَبْهَتَهَا عَجَبًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ- تَعَالَ: [فَصَكَّتْ وَجْهَهَا][5] ،وَقَالَتْ: [ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾] [6]"[1].

---

(١) [سورة الذاريات، الآيتان رقم ٢٩، ٣٠].

(٢) ينظر: تهذيب اللغة ،للأزهري، مادة (عَجَزَ)، (٢٢١/١).

(٣) ينظر: المرجع السابق، مادة (عَقَمَ)، (١٨٩/١).

(٤) [سورة إبراهيم، الآية رقم ٣٩].

(٥) [سورة الذاريات، الآية رقم ٢٩]

(٦) [سورة هود، الآيات رقم٧١: ٧٣] .

هكذا كان حال سارة كما أخبر القرآن الكريم عنها عجوز عقيم، ولكن قدرة الله –تعالى– لا يحدها شيء ، فمع استحكام أسباب المنع من كبر سنها، وسن زوجها، وعقمها، تأتيها البشرى مضاعفة، فتبشرها الملائكة بولد لها ومن بعده حفيد، فما أعظمها من بشرى، وما أجزله من عطاء ، فسبحان من بيده مقاليد الأمور الذي يقول للشيء كن فيكون، قال – تعالى– : [فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾] (٢)

ومن عجيب أمرها أنها لما ضحكت بعد أن بشرتها الملائكة بالولد ، وتعجبت من ذلك بالنظر إلى حالها لأن الأسباب الطبيعية تنافي مجيء الولد في هذا السن وفي هذا الحال من الضعف والوهن ، [ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ](٣)" فجاءت البشرى مضاعفة بأن هذا الولد الذي بشرت به سيولد له ولدا ، [فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ]

ففي هذه البشرى بشارات ضمنية أخرى، وهي أنها ستعيش حتى ترى ولد ولدها ،لأن عادة من يولد له ولد على الكبر لايدرك يفع ابنائه ، فضلًا من أن يرى عقبه ونسله، وأن ابنها لن يكون على عادة أبناء الشيوخ من الضعف والهزل الذين لا يعمرون طويلًا ، حتى اذا عمروا لا يكون لهم نسل ولا عقب، فإنه سيكون ولدا تام الصحة والخلقة معافى في بدنه .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك في صحيحه – كتاب–: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين – ذكر إسحاق بن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما– حديث رقم (٤٠٤٢)،(٦٠٢/٢)، وقال الحاكم:" قد احتج البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بالسدي، والحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» [التعليق – من تلخيص الذهبي] ٤٠٤٢ – صحيح.

(٢) [سورة هود، الآية رقم ٧١].

(٣) [سورة هود، الآية رقم ٧٢].

وقد اختص الله –تعالى– سارة – عليها السلام– بالبشارة بالولد دون إبراهيم – عليه السلام– ؛لأن ابراهيم – عليه السلام – كان له ولد من هاجر وهو اسماعيل ، أما سارة فلم يكن لها حينئذ ولد ، فتخصيصها بالشارة؛ لأن السرور بالولد أدخل في سعادتها ، وأكمل في المنة عليها وتشريفها ؛ بإعلامها أن الولد المبشر به سيكون منها جزاءا لصبرها على عقرها ، وعدم تضجرها لخروجها من أرض قومها ، وتركها أهلها وعشيرتها ، وانقيادها لأمر الله –تعالى– انقيادا تامًا في رضى واستسلام .

وفي الحكمة من توجيه البشارة إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم– عليه السلام– ، وقد وجهت إليه في آيتي الحجر والذاريات؛ للإيذان بأن ما بشر به يكون منهما ، ولكونها عقيمة حريصة على الولد وكانت قد تمنته حينما ولد لهاجر إسماعيل –عليه السلام–"[1]

وجاء جواب الملائكة إياها بجملة: [أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ] إنكار لتعجبها؛ لأنه تعجب مراد منه الاستبعاد. وأمر الله هو أمر التكوين، أي: أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات. وجوابهم جار على ثقتهم بأن خبرهم حق منبىء عن أمر الله. وعليه يكون المعنى: لا عجب من أمر الله لأن إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة، فلا عجب في تعلق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم[2].

فهي – عليها السلام– لم تتعجب من قدرة اللَّه أنه قادر على أن يهب الولد في كل وقت؛ ولكنها تعجبت لما رأت العادة في النساء والرجال أنهم إذا بلغوا المبلغ الذي كانوا هم لم يلدوا؛ فتعجبها أنها تلد في الحال التي هي عليها، أو يُردَّان إلى حال الشباب؛ فعند ذلك يولد لهما، وكلاهما عجيب بحيث

---

(١) ينظر: روح المعاني، للآلوسي (٦/٢٩٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور(١٢/١٢١، ١٢٢).

الخروج على خلاف العادة، لا بحيث قدرة الرب، وذلك كما في قول زكريا: [رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ][(١)]، وفي موضع آخر: [وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾][(٢)]، وقوله: [أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ] في الحال التي أنا عليها، أو يردُّ لي شبابي، فعلى ذلك قولها: [ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾][(٣)]"[(٤)].

وفي حوار الملائكة لسارة- عليها السلام- نجد أنهم أنكروا التعجب الواقع منها ؛ لأنها زوجة نبي مؤمنة به ومصدقة لخوراق العادات التي أيده الله بها ، فكأنهم يقولون لها:" لم تعجبين وأنت في بيت النبوة ، فما يحدث معكم الآن إنما هو مظهر من مظاهر رحمة الله بكم أهل البيت ، هذه الرحمة الدائمة المستمرة المحيطة بهذه الأسرة منذ نشأتها واصطفاء إبراهيم – عليه السلام – للنبوة ، فنجاته من النار، ومن بطش قومه من رحمة الله بكم ، ونجاتك أنت قبل ذلك من الملك الذي أرادك بسوء، فحفظك الله وحماك ونجاك ليس إلا من مظاهر هذه الرحمة التي تتجلى بينة واضحة بإبراهيم وأهل بيته ، وكذلك هبتكم هذا الولد في هذا السن ، ماهو إلا رحمة من الله بكم ، فلمَ العجب ، فرحمة الله ملازمة لكم في جميع أمر حياتكم وليست وليدة هذه اللحظة ، ولكن بإعمال الفكر والنظر ، وتذكر نعمة الله عليكم ، تجدي أنها ملازمة لكم في الماضى ، ومحيطة بكم في الحاضر، ومرافقة لكم فيما يستقبل

(١) [سورة آل عمران، الآية رقم ٤٠].
(٢) [سورة مريم، الآية رقم ٨].
(٣) [سورة هود، الآية رقم ٧٢].
(٤) ينظر: تأويلات أهل السنة ، للماتريدي(١٥٧/٦).

من الزمن بإذن الله –تعالى– ، فهذا العجب وإن كان من الممكن حدوثه من سائر النساء الأخريات فمقبول، لأنهن لم ينشأن في بيت النبوة ، ولم يطلعن على ما تتطلعين عليه مما اختصك الله به في هذا البيت المبارك أهله .

وللإمام النسفي في هذا الموضع كلام طيب حيث يقول:" [قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ] ، وإنما أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجيب وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت} أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب. وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم وأهل البيت نصت على النداء أو على الاختصاص {إِنَّهُ حَمِيدٌ} محمود بتعجيل النعم {مَّجِيدٌ} ظاهر الكرم بتأجيل النقم[١]

وجملة [إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾][٢] تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأن الله يحمد من يطيعه، وبأنه مجيد، أي: عظيم الشأن لا حد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدًا، وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وأهله[٣].

---

(١) ينظر تفسير مدارك التنزيل وأسرار التأويل ، للنسفي (٧٣/٢).

(٢) سورة هود، الآية :(٧٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور(١٢٢/١٢).

دلالات الآيات:

١- طلاقة القدرة الإلهية: يتمثل ذلك في البشارة بالولد بعد الكبر وانقطاع الأسباب الطبيعية لحدوثه، مما جعل من مجرد التبشير به أمر يتعجب منه، فلطمت خدها وصاحت بأعلى صوتها عجبًا، فكان إخبار الله لها أنه قادر فلا حدود لقدرته .

٢- الصبر على البلاء من أعظم أسباب الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، فقد صبرت -عليها السلام - على تركها أرض أهلها وعشيرتها، فأبدلها الله خيرًا منهم قومًا مؤمنين، ففازت برضى الله في الدنيا وجنته في الأخرة ، وصبرت على ما كان من أمر ملك مصر ونيته السيئة تجاهها فنجاها الله منه، وصبرت على الحرمان فجوزيت خير الجزاء، فبشرت بإسحاق نبيًا من الصالحين ، ثم من وراء اسحاق يعقوب.

٣-مشروعية الضيافة، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها[١].

٤- إن امرأة الرجل من أهل بيته، فيكون أزواجه- عليه الصلاة والسلام- من أهل بيته[٢] .

٥- حسن تأدب الزوجين مع بعضهما ، لما بشرت الملائكة ساره – عليها السلام بالولد قالت : (عجوز عقيم) ، فنسبت العقم إلى نفسها ، وقالت : ([ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا][٣] حيث نسبت العجز إليها ،والعجز كما هو معروف هو: عجزها عن القيام بالكثير من الأمور التي كانت باستطاعتها في شبابها ، والتي منه إنجاب الولد.

---

(١) ينظر: الإكليل في استنباط التنزيل (ص١٥١).

(٢) ينظر : تفسير محاسن التأويل للقاسمي (١١٨/٦).

(٣) سورة هود : الآية (٧٢).

ولما كان الحديث عن زوجها قالت : [وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ] {هود:٧٢} ، فلم تصفه بالكبر ، ولم تنسبه إلى العجز ، مما يدل على أدبها ورقيها وحسن معاملتها لزوجها، لذا كانت هذه المعاملة الراقية في كل جوانبها مثالا حيا، لكيفية التعامل بين الزوجين.

فتماسك الأسرة وسر قوتها يبدأ من علاقة الاحترام المتبادلة والتأدب بين الزوجين، مما يسهم بقوة في الارتقاء بها وسعادتها، وتربية الأبناء ووضعهم على الطريق القويم ، ليكونوا بذلك نواة الخلية الأساسية لبناء مجتمع خال من الانحرافات النفسية والعصبية والاخلاقية.

ومن هنا يجب التنبيه على أمر في غاية الأهمية وهو :أن الأطفال بطبعهم مقلدون، وأن الطفل الذي ينشأ في أسرة يعامل الزوجان كل منهما الآخر بأدب واحترام وتوقير متبادل، يؤثر ذلك عليه تأثيرًا ايجابيًا، مما يسهم في بناء شخصية ايجابية، سليمة من الأمراض والانحرافات النفسية، وهذا بدوره يساعد على ترابط وتكاتف الأسرة، وبالعكس فالطفل الذي ينشأ في أسرة غاب فيها الاحترام والأدب والتوقير المتبادل بين الزوجين، انعكس هذا الأمر على نفسية الطفل وأثر تأثيرًا سلبيا عليه ، مما قد يعرضه إلى الكثير من المعاناة في شبابه ، وأيضًا- في طريقة معاملته للطرف الآخر من أسرته مستقبلا.

لذا كان علينا أن ننتبه إلى ما يفعله بعض الأزواج نتيجة الانفتاح الإعلامي، والانبهار مما يقدم على شاشات التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها، من أفكار وطرق للتعامل بين الزوجين ما أنزل الله بها من سلطان ، مما أصابهم بالبلبلة الفكرية ، مما جعلهم يرددون ويقلدون ما يشاهدونه ،حتى وإن خالف المنهاج الذي وضعه الله -تعالى- وسار عليه الانبياء ، مما أدى إلى تفكيك أوصر الأسرة ، وترابطها ، فتعرضت الكثير من الأسر في مجتمعنا في هذه الآونة للانهيار عند أدنى خلاف بينهما .

المطلب الثاني:

من أزواج النبي إبراهيمﷺ هاجر عليها السلام

ولنتأمل طاعة هاجر -عليها السلام- لزوجها ، وانقيادها لأمر ربها طاعة مطلقة وثقة مطمئنة وإيمان لايخالطه شك، نجد كيف كان لها أكبر الأثر في استقرار الأسرة ؛ حيث لم تَشْك ولم تتضجر، ولم تفتعل المشاكل، بل أطاعت وصبرت ثقة بزوجها وطاعة له فخرج بها زوجها من الشام إلى مكة بعدما أمرته ساره بأخذها بعيدًا عنها ، فأخرجهما إبراهيم ﷺ إلى أرض مكة، ولمَّا ترك إبراهيم ﷺ زوجته ووليده، وهمَّ بالرحيل قالت له هاجر: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، وأستودعكما إياه. فقالت: الله أمرك بهذا؟. قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم انصرف إبراهيم من عندهما وهو يقول: [رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧][1] [2].

وقد روى لنا الإمام البخاري قصة ذلك عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: " أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ

(١) [سورة إبراهيم، الآية رقم ٣٧].

(٢) ينظر: القول المبين في سيرة المرسلين، لمحمد الطيب النجار (١/٤٧/٥٧).

بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: [رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ]حَتَّى بَلَغَ [يَشۡكُرُونَ ٣٧] [إبراهيم: ٣٧]، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا»، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ – تُرِيدُ نَفْسَهَا –، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ" يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ – أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ –، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا " قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ

فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ» فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عليه السلام، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي

وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: [وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾][1][2].

إن للمسلمين والمسلمات في أم إسماعيل عليه السلام أسوة حسنة؛ لأنها نموذج لما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة، ولا عجب في ذلك فهي زوجة نبي من أولي العزم، وهي أم لنبي صادق الوعد، لقد كانت هاجر –عليها السلام– زوجة مطيعة لأوامر الله ثم أوامر زوجها، لقد كانت أُمًّا أمينة على ابنها الذي تركه إبراهيم أمانة في عنقها، فربته تربية إسلامية وعوَّدته الاستسلام لله عز وجل بالكلية والامتثال لأوامره، كما علَّمته طاعة الوالدين ، فإذا ما أعلمه أبوه إبراهيم عليه السلام [إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ] [3]، كان رد إسماعيل الذي ينطوي على الأدب الجم [يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾] [4]، وإذا بالأم المسلمة لا تجزع ولا تعترض لأنه أمر من الله، وهي تعلم علم اليقين

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب – أحاديث الأنبياء – باب: لم يسمه– حديث رقم (٣٣٦٤)، (٤/١٤٢).

(٣) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٢].

(٤) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٢]د

أنـه لـن يضيعهم، فهـي مستسلمة لأمر ربهـا ابتداءً، كمـا أن هـاجر –عليهـا السلام– قد ربَّت ولدها على إقام الصلاة وعلى الصدق [إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾][1]، لقـد أخـذت هـاجر – عليهـا السـلام– علـى عاتقهـا المسئولية كاملـة ، ففـي الوقـت الـذي اشتغل فيه زوجها بالدعوة إلى الله –تعالى– في أرض الشام، كانـت هـي تربـي ابنه تربية استحق معها اصطفاء الله ﷻ له بالنبوة[2]

وبذلك يتضح لنا دور السيدة هاجر – عليها السلام– في الأسرة، فقد قامت بواجب الزوجة المطيعة لزوجها، المنقادة لأوامر ربها ﷻ ؛ وتبين لنا كيف قدَّمت روحها ووليدها طائعة راضية بذلك.

هؤلاء هن النسوة اللاتي ينبغي أن نسير على خطاهن ، وأن نحتذي حذوهن ، ونتمثل بفعلهن، كيف آثروا رضا الله– تعالى– على أهوائهن؟ كيف ربين أبنائهن على طاعة الله –تعالى، وعلى أخلاق الرسل كان نهجهن ، فضربوا أروع الأمثلة في حسن الخلق والطاعة ، وإثار رضا والديهم ورضا ربهم، كيف حافظن على أسرهن من التشتت والضياع .

* * * * *

(١) [سورة مريم، الآيتان رقم ٥٤، ٥٥].

(٢) ينظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ جزيرة العرب، سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، وتاريخ حرم الله الآمن، للدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود، والدكتورة/ وفاء محمد رفعت جمعة،(ص٤١، ٤٢).

المبحث الثالث:

أولاده- عليه السلام - ودورهم في ترابط الأسرة ورقيها.

أولاده- عليه السلام - ودورهم في ترابط الأسرة، ورقيها.

وسأخص في هذا المبحث الحديث عن إسماعيل عليه السلام لظهور أثره الفعال في حياة الأسرة والنهوض بها في مواقف عديدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، سواء كان هذا الأثر من خلال التعامل المباشر مع أبيه كما يتمثل ذلك من قصة بناء الكعبة، وتنفيذ أمره في تطليق زوجته الأولى، أو كان ذلك أثرًا غير مباشر، وإنما كان من آثار التربية السليمة على المنهج الرباني يتمثل ذلك في صدق الوعد، وأمر أهله بمكارم الأخلاق من الصلاة والزكاة بما فيه صلاح أحوالهم .

أما إسحاق عليه السلام فلم ترد الإشارة والحديث عنه إلا ماجاء في أمر البشارة به، وكذلك وصفه ببعض الصفات في سياق ذكر أنبياء الله -تعالى- .

ويمكن بيان دور إسماعيل عليه السلام في النهوض بأسرته من خلال ما يلي:

أولًا: <u>الإيمان بالله والطاعة المطلقة له، يتمثل ذلك من خلال ما يلي:</u>

١- طاعته لأبيه، والنزول على رأيه في استجابته للأمر الله -تعالى- بذبحه والصبر عليه.

وقد حكى لنا القرآن قصة ذلك فقال- تعالى-: [فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾] [(١)].

وإنما قال إسماعيل عليه السلام لأبيه [ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ] ، ولم يقل: افعل ما تريد؟ لأن هناك فرقاً كبيرًا جدًا بين اللفظتين: فلو قال إسماعيل: يا أبت افعل ما تريد! فهو في غاية الأمر ابن يطيع أباه، أو جندي يطيع قائده، أو مأمور يطيع آمره، لكن إسماعيل عليه السلام عدل عنها إلى قوله: [ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ] ؛ ليبين أنه عبد يطيع ربه، فإسماعيل هنا قبل أن يذبحه أبوه، لا لأن أباه يرغب في ذبحه محال، لكن لأن الأب بذبحه لابنه إنما ينفذ أمر الله، فإسماعيل هنا إنما يطيع أباه إبراهيم على أن ينفذ أمر الله: [ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ]، ولم يقل: افعل ما تريد، وقطعًا فإسماعيل عليه السلام ما كان له أن يصل إلى هذه المنزلة في الأدب والتسليم والعبودية لولا فضل الله- جل وعلا - ورحمته عليه، وهذا الفضل من سماته: أن الله -جل وعلا- جعل إسماعيل يربى وينشأ في كنف خليل الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- ، ولقد اجتمع في قلبي هذين النبيين من التوحيد والاستسلام لأمر الله -تعالى- ما جعل الأب يفزع إلى ابنه ويخبره بما أوحى الله -تعالى- به إليه، وما جعل الابن يطيع أباه ويقول له معينًا له على الطاعة [ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ] هو دين رب العالمين وشرعه وهو القديم وسيد الأديان هو دين آدم والملائك قبله هو دين نوح صاحب الطوفان هو دين إبراهيم وابنيه معاً وبه نجا من لفحة النيران وبه فدى الله الذبيح من البلا لما فداه بأعظم القربان صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[(٢)].

---

(١) [سورة الصافات، الآيات رقم ١٠٢: ١١٣].

(٢) ينظر: معالم بيانية في آيات قرآنية (٢/٩).

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقا لرؤيا رآها أبوه؟ إنه يرتقي إلى الأفقك الذي ارتقى إليه من قبل أبوه: [قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢] إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رضى كذلك وفي يقين..

[يَٰٓأَبَتِ] في مودة وقربى. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته [يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ] فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه. يحس أن الرؤيا إشارة. وأن الإشارة أمر. وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير تردد ولا تمحل ولا ارتياب. ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة [سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢] ولم يأخذها بطولة. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة. ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا.. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به [سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢] يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة. ويا لعظمة التسليم"(١).

<u>ثانيًا: مساعدته لأبيه – عليهما السلام – في بناءالبيت الحرام.</u>

وقد حكى لنا القرآن الكريم ذلك؛ حيث قال – تعالى –: [وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ، لسيد قطب (٥/٢٩٩٥).

لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾][1]، وقال أيضًا: [وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾] [2] .

أمر الله – تعالى– نبيه إبراهيم عليه السلام أن يبني بيتًا في الأرض يكون لأهل الأرض كالبيت المعمور الذي في السماء للملائكة، فاستجاب إبراهيم ، وابنه إسماعيل – عليهما السلام– لأمر ربهما، وقد بيَّن الله لهما موضع هذا البيت وعيَّن لهما محله، وبذلك كان البيت الحرام أول بيت وضع للناس.

قال– تعالى–: [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾] [3]، وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟، قَالَ: «ثُمَّ المَسْجِدُ الأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: " أَرْبَعُونَ، ثُمَّ قَالَ: حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ، وَالأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ "[4].

وجاء في الحديث الصحيح أن إبراهيم عليه السلام جاء بعد فترة إلى مكة (...وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ:

---

(١) [سورة البقرة، الآية رقم ١٢٥].

(٢) [سورة البقرة، الآية رقم ١٢٧].

(٣) [سورة آل عمران الآية رقم ٩٦].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه –كتاب – أحاديث الأنبياء– باب:قول الله تعالى: [وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾] الرَّاجِعُ المُنِيبُ حديث رقم (٣٤٢٥) (١٦٢/٤).

فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: [رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾] (١)، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ: [رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾]" (٢).

والملاحظ في قصة بناء الكعبة أنهما اشتركا في كل شيء حتى في الدعاء والتضرع إلى الله – تعالى- أن يتقبل منهما هذا العمل المبارك، فقد رفعا القواعد من البيت، واستمرا على هذا العمل العظيم، وكانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما

فإن من أجمل الأحوال وأحسنها أن يكون الأب والإبن كلاهما يجتهد في طاعة الله ونيل رضاه ، وهذا ملاحظ في قصة بناء الكعبة ؛ فإبراهيم – عليه السلام- يقول لابنه :" إن الله قد أمرني أن تعينني فيه . فيقول :" إذا أفعل . بلا سؤال ولا تردد ولا هروب من الطاعة.

وقد شارك إسماعيل-عليه السلام- في بناء الكعبة ، فكان إبراهيم – عليه السلام- يقوم بالبناء وإسماعيل يقوم بدور المساعد لأبيه ، يناوله الحجارة والطين وغيرها من الأمور اللازمة لهذا الأمر، وعليه فيصح –أيضًا- أن يطلق الرفع عليهما ، يؤيد هذا الأمر عطف إسماعيل على إبراهيم في قوله –تعالى-: :[وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ] {البقرة:١٢٧}، على

(١) سورة البقرة، الآية رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : أحاديث الأنبياء،حديث رقم (٣٣٦٤)، (١٤٢/٤).

أن(الواو) عاطفة ، وكذلك قولهما في الدعاء [رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ] {البقرة:١٢٧}،أي تقبل منا بناء الكعبة وغيرذلك.

وقيل أن الذي رفع القواعد إبراهيم – عليه السلام وحده– والداعي إسماعيل على أن الوقف على (البيت) في قوله –تعالى– : :[وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ]، وعليه فتكون(الواو) إستئنافية وليست عاطفة ويكون [وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ] من كلام إسماعيل عليه السلام.

وكما شاركه في البناء شاركه في الدعاء والتضرع إلى الله –تعالى– في خضوع واستسلام وانقياد ، أن يتقبل منهما كل عمل يقومان به ،أي : يرفعانها قائلين :[رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ] {البقرة:١٢٧} ، يدخل في ذلك استجابة الدعاء وبناء الكعبة ورفع قواعدها التي أمرهم بها ، خالصة لوجهه الكريم ، وغيرها من الأعمال التي يعملانها تقربًا لله –تعالى– ، وقد وردت قراءة تفسيرية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود تؤيد هذا المعنى : وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ويقولان ربنا تقبل منا" أي، الدعاء وقع منهما معا ،كما وقع الرفع منهما[١] .

ولم يقفا عند هذا الحد وهو : أن يتقبل الله منهما صالح أعمالهما بل توجها بالدعاء لذريتهما، فطلبا من الله –تعالى– أن يجعلهم مسلمين مستسلمين له في خضوع وخنوع وانقياد ورضا ، فقد دعا – عليهما السلام– لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته، خضوع القلب، وانقياده لربه

(١) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (١٢٦/٢).

المتضمن لانقياد الجوارح[١] فقالا : [رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ][٢]

وطلبا من الله –تعالى– الثبات عليه والزيادة فيه ، ومن أسباب الصلاح والفلاح إرسال الرسل إليهم ، [رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] [٣] يخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويقيمون عليهم الحجة ، ويعلمونهم من شرائع الله وأحكامه ما تكمل به نفوسهم ، وتصلح به قلوبهم ، ويزدادوا بها يقينا .

وإنما خصّا الذرية بالدعاء؛ لأنهم أحق بالشفقة؛ ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع[٤]، وكذك أبناء الانبياء إذا صلحوا كانوا سببا في إصلاح غيرهم ،لذا توجه إبراهيم بالدعاء لذريته وإسماعيل.

فالدعاء للأولاد من الصفات التي مدح الله بها عباده ، حيث ذكرها سبحانه في تعداده لصفات عباد الرحمن فقال: "[وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾] [٥]، فعباد الرحمن يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم تقر بهم أعينهم ، وتطمئن بهم قلوبهم، ويتضاعف بها عدد " عباد الرحمن"، وهذا شعور فطري إيماني عميق ، شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله–عزوجل– ، وفي أولهم الذرية والأزواج، فهم أقرب الناس تبعة ، وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال، وهي

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي(٦٦/١).

(٢) سورة البقرة : الآية رقم (١٢٨)

(٣) سورة البقرة : الآية رقم (١٢٩)

(٤) ينظر: تفسير محاسن التأويل، للقاسمي(٣٩٨/١).

(٥) [سورة الفرقان، الآية رقم ٧٤].

الرغبة كذلك في أن يحس المؤمن إنه قدوة للخير يأتم به الراغبون في الله ، وكذلك ذريته[١].

فما زال إبراهيم –عليه السلام– يلهمنا بأفعاله ، ويرشدنا بإرشاد الله – تعالى– له إلى السبب الرئيس في صلاح الأبناء، ألا وهو الدعاء، ألح إبراهيم – عليه السلام– على الله –تعالى– بالدعاء في طلب الولد وأن يجعله الله – تعالى– من الصالحين ، ولما جاء إلى الحياة الدنيا – تعهده بنفس الإلحاح في الدعاء أن يحفظه الله –تعالى– وذريته ، وأن يتقبل الله منه وذريته ، فالإلحاح على الله –تعالى – بالدعاء، مع الصدق فيه ،وعدم اليأس منه من أهم الأسباب في إصلاح الذرية ؛ لذا أولى الاسلام الدعاء للأبناء عناية خاصة وحث عليه ورغب فيه، وأشار إلى أن دعوة الوالد لولده من الدعوات التى لاترد، كما جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ"[٢]

فكان منها "دعوة الوالد لولده"؛ لأنه لا يدعو له إلا على نعت الشفقة والرقة التامة.

فالأولاد قرة الأعين، ومهجة القلوب ، والغاية من وجودهم الوصول بهم إلى طريق الصلاح والفلاح، والسبيل الأوحد لاستنزال أسباب الهداية لهم وذريتهم هو الدعاء ؛ لذا كان دأب الأنبياء والصالحين تعهد أولاهم بالدعاء ؛ لأنهم يعلمون يقينًا أنه لابد من تدخل القدرة الإلهية في إصلحهم ، وعدم الاعتماد على قدرات الآباء البشرية من التربية السليمة ،والعمل الصالح فقط ؛

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (٥/٢٥٨٠،٢٥٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه –أبواب: الدعاء– باب: دعاء الوالد لولده – حديث رقم (٣٨٦٢) (٥/٣٠) وهو حديث حسن صحيح.

-وإن كانت مهمة- إلا أنه لابد من تكميلها وربطها بالدعاء ؛ لأن القلوب بيد الله -تعالى يصرفها كيف شاء ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، فالدعاء له أثر عظيم في تغيير مسار الأولاد في المستقبل ،فلا خوف عليهم ، في ظل الدعوات لهم بالخير والصلاح والهداية.

كان أحد الصالحين يقيم الليل ، فنظر بجواره فإذا ولده ، فسأله ولده وقال:"يأبت مالى أراك تكثر من قيام الليل ،وتطيل السجود ،فقال له والده:"من أجلك ياولدي"، وقال -تعالى- [وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾][1]

وابرهيم عليه السلام هذا الأب الصالح قد أعطى القدوة الصالحة لابنه في طاعة الله وبذل الغالي والثمين في سبيل مرضاته ، وقد تربى الابن على هذا المنهج الرباني الكريم ، فقد أعطاه القدوة في مراحل شتى من حياته ، وذلك حين تركه مع أمه بواد غير ذي زرع امتثالًا لأمر الله ، و-أيضًا – حينما عرض عليه رؤيا ذبحه فهمّ بذبحه تنفيذا لما أمره الله به منقادًا مختارًا طاعة الله لا يقدم شيئًا عليها ، فهذه القدوة الصالحة التي تربي وتغرس القيم العليا غرسا. ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن تربية الأبناء على الطاعة إنما تكون أولاً بالقدوة الصالحة الماثلة أمامهم ، فالقدوة هي أنجح وسائل التربية الفاضلة التي تؤثر في تكوين الولد إيمانيا. والأبناء مهما كان استعدادهم للخير قويًّا ، ومهما كانت فطرتهم نقية سليمة فإنهم لن يستجيبوا لمباديء الخير وأصوله مالم يروا مربيهم في ذروة الالتزام بمنهج الله -تعالى- ، ولعل أعظم

([1]) سورة النساء، الآية رقم (٩).

الانحرافات الخلقية التي نجدها في مجتمعنا من قبل أبناء المسلمين إنما هي نتيجة فقدان القدوات الصالحة المربية[١].

ثالثًا:صدقه ﷺ في الوعد:

وصف الله ﷻ إسماعيل ﷺ بالصدق في الوعد، فقال- تعالى-: [وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾][٢]، وإيراده ﷺ بهذا الوصف، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء، تشريفًا له وإكرامًا؛ ولأنه المشهور من خصاله، وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح، فوفّى به حيث قال:[سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾] [٣]، وهذا أعظم ما يتصور فيه، وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة [٤].

فالصفة البارزة التي وصف بها إسماعيل –عليه السلام – وميز بها فى ديوان الأنبياء والمرسلين، هى: صدق الوعد ، والوعد، هو قوله لأبيه: «[يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ] {الصافات:١٠٢}، وذلك حين قال له أبوه: [يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ][٥] ، وصدق الوعد فى أنه كان قولًا صدقه العمل، فلم يكن قوله لأبيه: [يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ] مجرد قول يقال، ولكنه كان مصحوبًا بنية صادقة على إمضاء هذا القول إلى غايته، وقد تبين هذا حين جاءت ساعة التنفيذ، فاستسلم إسماعيل لأمر ربه، وأعطى رقبته

(١) القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء، لعماد زهير حافظ (١/١٤٥).
(٢) [سورة مريم، الآية رقم ٥٤] .
(٣) [سورة الصافات، الآية رقم ١٠٢].
(٤) ينظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٧/١٠٣، ١٠٤).
(٥) [سورة الصافات، الآية رقم].

للسكين، كما يقول سبحانه وتعالى: [فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾]"[1].

رابعًا: أمره عليه السلام أهله بالصلاة والزكاة:

قال تعالى مبينًا ذلك: [وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾][2]، هذا أيضًا من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة ، حيث كان مثابرًا على طاعة ربه آمرًا بها لأهله ، كما قال- تعالى- لرسوله: [وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾] [طه: ١٣٢] [3]. والمعنى: أنه عليه السلام كان يبدأ أهله في الأمر بالصلاح والعبادة؛ ليجعلهم قدوة لمن وراءهم.ولأنهم أولى من سائر الناس [وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾] [الشعراء: ٢١٤] ، [وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ] [طه: ١٣٢] ، [قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا] [التحريم: ٦] ، ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الدينيّ أولى[4]

قال السعدي: [وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ]، أي: كان مقيمًا لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصا أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم. [وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا]، وذلك بسبب

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (٨/٧٤٤).
(٢) [سورة مريم، الآية رقم ٥٥].
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/٢١٢، ٢١٣).
(٤) ينظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٧/١٠٤).

امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه"[١].

وكان أمره- عليه السلام- لأهله بالصلاة والزكاة في صبر وحلم وأناة ، لا جرم وقد وصفه الله -تعالى بالصبر مع جملة من الأنبياء ذكرهم الله - تعالى- في قوله: [وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ] {الأنبياء:٨٥} أي: كلهم من أهل الصبر فيما أنابهم في الله -تعالى- [٢] فإسماعيل عليه السلام- استحق هذا الوصف بالصبر لأنه صبر في حوادث كثيرة وتحمل الأذى في الله- عزوجل- دون شكوى أو تضجر، فصبر على الذبح ، وعلى إقامته في واد غير ذي زرع ولا بشر ولا طير ، وصبر على بناء البيت مع أبيه ، وكذلك صبر على زوجته ، التي رأى منها سوء الخلق ، فكان إسماعيل مع سوء خلقها صابرًا عليها متحملًا لأذاها إلى أن استجاب لأمر والده في تطليقها ، ولولا هذا الأمر الصريح من أبيه لاستمر في صبره عليها إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا .

كل هذه الابتلاءات كانت سببًا في إكرام الله -تعالى- له وجعله من الصالحين [وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ] {الأنبياء:٨٦}، ورضي عنه ،وجعله رسولًا نبيًا، فعوضه زوجة تقية نقية صابرة شاكرة ، ، وأخرج من صلبه من يعبد الله -تعالى ويوحده.

ومن أهم الهدايات المستنبطة من هذه القصة أن هذا الصفات الحميدة التي تحلى بها اسماعيل -كانت سببًا موصلًا لرضا الله -تعالى -عليه ، واستحق أن يوصف بذلك من بين الأنبياء فقال -تعالى- في حقه: [وَكَانَ عِندَ

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٤٩٦).

(٢) تفسير جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، للطبري(٥١١/١٨).

رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا]، وما كان ذلك إلا لاتصافه بجملة من الصفات الجليلة التي استوجبت رضا الله – تعالى– عنه ، فقد وصفه الله بالنبوة، والرسالة، وصدق الوعد، وأمر الأهل بالصلاة والزكاة، وتلك أمهات من الأخلاق العظيمة ،فاجتمع له جمال العمل وقبوله، والاجتباء والاصطفاء[١] ، فكان عمله محمودًا فيما كلفه ربه، غير مقصر في طاعته[٢]

وقيل: [وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥] أي: قائما لله بطاعته ، وقيل : رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية في المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات[٣] .

ولما كان رضا الوالدين من رضا الله –تعالى– وطاعتهما سببا في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، نجد أن اسماعيل عليه السلام– قد اتخذ رضا والده مطية ووسيلة يصل بها إلى أسمى الغايات، ألا وهي: رضا الله – تعالى– ويا لها من غاية تصرف فيها الأعمار، وتستفرغ فيها القوى، وتفنى فيها النفوس، ليحصل عليها المرء في نهاية المطاف ، بدأها اسماعيل عليه السلام– بالطاعة المطلقة في مساعدة والده في بناء الكعبة ، ومشاركته في الدعاء ، وتأمينه عليه، ، وصدقه في الوعده ، وصبره على الذبح ، فلم يكن قوله لأبيه [يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ] مجرد قول بل صدقه التنفيذ ، وأطاع والده في تغير عتبة بيته من غير تردد ولا انكار ، وأمر أهله بالصلاة والزكاة ، كل ذلك أهَّلَه في النهاية للوصول إلى الغاية المرجوة ألا وهي رضا الله–تعلى– عليه فختم الله– تعالى – الآية بهذه الجملة المؤثرة ، للدلالة على أن الأمور

---

(١) ينظر الأساس فس التفسير، لسعيد حوى (٣٢٨١/٦)

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢١٢/١٨)

(٣) ينظر : تفسير لباب التأويل ، للخازن(١٩٠/٣)

بخواتيمها ، ومن أجل الغاية ،لابد وأن يتحمل الانسان مشقة الوسيلة بنفس راضية مستسلمة لرب قادر متعال.

رابعًا: استجابته عليه السلام لوصية أبيه في إصلاح بيته:

من حلم إسماعيل عليه السلام- انه استجاب لرغبة والده في تغيير عتبة بيته ، وفراق امرأته ، مع أنه كان يستطيع معاشرتها بالمعروف والصبر على سوء أخلاقها ، لكنه لحلمه لم يكن أبدًا يرد قول والده حتى وإن كلفه الكثير.

ومن أبرز المواطن التي يتجلى فيها آثار أمره – عليه السلام – لأهله بالصلاة والزكاة ، وحرصه على تكميلهم ، ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، تغيير عتبة بيته – مفارقته لزوجته الأولى – ، لما بدر منها من منكرات الأخلاق ، وسوء المعاملات

حكى لنا القرآن الكريم الطريقة المثلى التي عامل بها إسماعيل- عليه السلام- أهل بيته ، فقال –تعالى-:([وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾] فكان – عليه السلام- شديد الحرص على صلاح أهل بيته ؛ لأنه بصالحهما ينصلح حال المجتمع ، ويعلوا شأنه ،ومن أهل الرجل زوجته،

فاختيار الزوجة الصالحة وتعهدها بمزيد من الاصلاح هي غاية الأنبياء والصالحين، فبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم، ويبدوا لنا ذلك واضحًا جليًا من خلال قصة تغيير عتبة بيته بأمر من أبيه، فقد كان من عادة إبراهيم الخليل عليه السلام أن يأتي مكة زائرًا لـ"هاجر وولده " إسماعيل"؛ ليتفقد حالهم ويطمئن عليهم، بين الحين والحين، فقد زار- عليه السلام- ولده زيارتين في مكة بعد وفاة هاجر- عليها السلام-، انتهت كل زيارة منهما برسالة من الوالد لولده الغائب، وترتب على كل منهما موقفًا هو نقيض للآخر، فعقب الزيارة الأولى طلَّق إسماعيل عليه السلام زوجته استجابة لأمر

والده، وأما الزيارة الثانية فكانت سببًا في تثبيت الزوجة الثانية، دعمًا لاستقرار الأسرة

ومما يدل على ذلك ما روي عن النبي ﷺ قال:"..... وَشَبَّ الغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ[1]، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عليه السلام، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ

(١) أي: من قبيلة جرهم.

العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ"[١].يقول ابن حجر: فقوله :" عتبة بابك" كناية عن المرأة ، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لها، وهو حفظ الباب ، وصون ما هو بداخله[٢] .

فنلاحظ من خلال هذه القصة أن إبراهيم ﷺ لم يسأل عن نسبها، أو حسبها، أو ثروتها، فلم يقل لها من أية قبيلة أنت ؟ وما هو نسبكم في العرب؟ الخ، إنما أراد أن يتعرَّف على دينها وأمانتها؛ لأن الأمة المؤمنة تقود إلى الجنة، والمغفرة الإلهية، لقد جاء إبراهيم لا ليطمئن على ثروة ابنه، إنما جاء ليطمئن أن ابنه قد اقترن بفتاة مسلمة وهكذا يجب أن تكون اهتمامات الآباء حيال أبنائهم وبناتهم [٣]

ومن خلال هذه القصة الملهمة نستنبط أن شكر النعمة ، والتحدث بها سبب من أسباب دوامها ونمائها، وكذلك كفران النعمة وكتمها والشكوى الدائمة المستمرة ، سبب في زوال النعمة واستبدال أصحابها، يبدو ذلك واضحًا جليًا من عاقبة كلتا الزوجتين؛ فالناقمة الشكاية البكائة ، استبدلت بالقانعة الراضية الشاكرة؛ لذا ينبغي أن تكون الزوجة راضية قانعة بحال زوجها في كل أحواله (في العسر واليسر) دون تضجر أو شكوى ؛ لذا ينبغي الحرص كل الحرص على اختيار الزوجة الصالحة التي تعين الزوج على أمر دينه ودنياه ؛ لذا كان اسماعيل – عليه السلام- [يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ] وهي عبادة بدنية محضة بها

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٣٦٤)، (١٤٢/٤).

(٢) ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر(٤٠٤/٦).

(٣) ينظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ جزيرة العرب، سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، وتاريخ حرم الله الآمن، للدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود، والدكتورة/ وفاء محمد رفعت جمعة (ص٤٣، ٤٤).

تقوى علاقتها بربها، وتستعين بها على أمورها الحياتية ، وتنهاها هذه الصلاة عن كل ما لا ينبغي لها أن تأتيه، يقول -تعالى- [إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ] {العنكبوت:٤٥}، ولم يكتف بهذا الحد ؛ بل أمرها بالتصدق [وَٱلزَّكَوٰةِ] وأطلق يدها بالإنفاق من مالها ، أو أعطاها الإذن بالنفاق من ماله- عليه السلام- وما كان ذلك إلا ليطهر نفسها ، ويزكي أخلاقها كما قال -تعالى" [خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا] {التوبة:١٠٣}، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة: يراد بها الصدقات الواجبة وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء[١] .

دلالة الايات السابقة:

١- فضل اسماعيل -عليه السلام- على أخيه إسحاق-عليه السلام-؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل -عليه السلام-وصف بالنبوة والرسالة ، (وكان رسولًا نبيا) ومما يدل على ذلك – أيضًا – وصف اسماعيل -عليه السلام- بالصبر دون اسحاق -عليه السلام- يقول – تعالى- : [وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ][٢] ومع هذا التفضيل الصريح في آيات القرآن الكريم- إلا أنه لم نجد له أثرا سيئا في حياة هؤلاء الأنبياء ؛ لأنهم ربوا على الفضيلة والتمسك بشرع الله – تعالى- والسير على طريقه المستقيم ، [وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾] [٣] هذه التربية الربانية ، والتنشئة الإلهية جعلت من هذه الاسرة وهؤلاء الأبناء قدوة لمن أقلى السمع وهو شهيد .

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ، للرازي(٢١/٥٥٠).

(٢) سورة الأنبياء:الآية رقم (٨٥).

(٣) سورة مريم: الآية رقم (٤٩).

فمما يجب التنبيه عليه لمن أراد تربية الأبناء وفق المنهج الرباني ،وإرساء دعائم الأسرة وفق التشريعات الإلهية ، عدم المفاضلة بين الأبناء والتمييز بينهم في أمور الحياة ، سواء كان هذا بسبب الجنس(الذكر – الانثى) أو بسبب الذكاء، أو الجمال أو غيرها من أسباب المفاضلة ، مما يؤدي إلى إخراج جيل منحرف نفسي وفكري وأخلاقي، فيلجأ الطفل إلى أمور يستطيع من خلالها تعويض هذا النقص الذي لحقه ، من الاعتداء على الآخرين– أو البكاء ، أو غيرها من التأثيرات النفسية السيئة التي ينتهجها الطفل ، لإبراز شخصيته والدفاع عنها ، فعدم العدل بين الأبناء سبب مباشر لتدهور العلاقة بين الأبناء والأباء، وسبب رئيسي في التفكك الأسري ؛ لذا يجب علينا أن نحكم كتاب الله –تعالى– وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم– في العدل، وألا يكون اختلاف الصفات بينهم سببًا في كره بعضهم البعض ، وكذلك سببا في عقوق الأباء في الكبر ، فكم من الأسر التي تعاني من مثل هذه الانحرافات ، نتيجه لهذا الظلم البين في التمييز بين الأبناء.

٢– أهمية الصدق في الارتقاء بالأسرة وفلاحها ؛ فالله –تعالى– خص اسماعيل–عليه السلام– بالصدق في الوعد؛ ومع أن الصدق قدر مشترك بين الأنبياء إلا أنها كانت الصفة البارزة ، والسمة الشخصية المميزة له – عليه السلام– ، ولما كان صدق الوعد من الصفات الحميدة ، كان من عوامل فلاح المجتمع ، ورقي الأمم أن يتصف أفرادها بالصدق في جميع شؤونهم وكافة أحوالهم ، وأن يظهر أثر هذه الصفة الحميدة في سلوكهم ، وعبادتهم لربهم ، وكذلك في تعاملاتهم فيما بينهم ، وقد حث النبي – صلى الله عليه وسلم– على وجوب الاتصاف بالصدق والعمل به وبيان حسن عاقبته في الدنيا والآخرة ،قال – صلى الله عليه وسلم– (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي

إِلَى الْبِرِ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا) [١]

فيبغي لنا أن نتحرى الصدق في كل مناحي الحياة ، فالصدق يكون في الفكر ، والنية، في الأقوال والأعمال ،لأنه ملاك كل خير وسعادة، فهو أفضل الأخلاق وأعلاها وبه تكمل المروءة ، وبدونه يفقد لإنسان مروئته "فلا مروءة لكذوب".

فالأب الصادق والأم الصادقة ، يكون أولادهم بالتبعية صادقين في أقوالهم وأفعالهم، فالأخلاق لا تلقن، ولكن تقلد، فالطفل الذي ينشأ في أسرة صادقة، ينشأ على الصدق ويدرك أهميته وفضله، حتى وإن ضل الطريق يومًا، يرشده حسن نشأته، وتعود به سنوات تعليمه الأولى إلى الدرب مرة أخرى ، والبذرة الصالحة حتى وإن خالط ماء سقياها يوما بعض الفساد، نقته وأزالت شوائبه التربة الصالحة ، نرجوا من الله –تعالى– أن يرشدنا وأولادنا إلى مافيه صلاح ديننا ودنيانا ، وأن نكون لهم تربة صالحة تنقى ماعلق بهم من شوائب الحياة، ورزية أصدقاء السوء، ونسير سويا على الدرب حتى نصل إلى غايتنا – رضى الله – تعالى.

٣– فضيلة أمر الأهل – أفراد الأسرة– بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، مع الصبر عليهم ، وعدم تركهم همـلًا فتأكلهم النار ، فمن أهم الصفات التي وصف الله –تعالى– بها اسماعيل أنه [وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ][٢] ، فقد كان أول ما يبدأ في الأمر بالمعروف وصلاح العبادة ، يبدأ بأهله ليجعلهم قدوة لمن وراءهم، فهم أولى الناس بالإصلاح .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه –كتاب: البر والصلة والآداب– باب: بَابُ قُبْحِ الْكَذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِ وَفَضْلِهِ–حديث رقم (٢٦٠٧) (٢٠١٣/٤).

(٢) سورة مريم : الآية (٥٥).

وقد وردت الكثير من الآيات القرآنية التي تأمر الرعاة المسلمين بأن يقوا أنفسهم وأهليهم المسالك التي توردهم النار فقال –تعالى– :[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ][1]، وقد آمر الله –تعالى– نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم بأن يأمر أهله بالصلاة في قوله –تعالى– : [وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا][2] ، فلابد من تزكية النفس وتطهيرها ، فينبغي لكل راع في بيته وأهله أن يأمر رعيته ويتعهدهم بما يصلح أحوالهم، ويزكي نفوسهم، ويطهرها في الدنيا لتكون سببا لسعادتهم في الآخرة، هذا ما يجب أن تكون عليه الأسرة المسلمة .

(١) سورة التحريم : الآية رقم (٦).

(٢) سورة طه : الآية رقم(١٣٢).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد وصحبه وآله، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، هذا وفي نهاية المطاف في رحاب كلام رب العالمين الذي لا ينضب معانيه، ولا يخلق على كثرة الرد، فكلما أجال فيه الباحثون عقولهم وتدبروا في معانيه أفاض الله عليهم ما يبرز إعجازه ويجلي معانيه.

وفي ختام هذا البحث ينبغي علينا أن نرجع إلى ديننا، إلى قرآننا نستقي منه أساليب تعيننا على تعهد أولادنا وأسرنا في هذا الزمن الذي تعددت وتشعبت فيه طرق التربية ، وارتفعت فيه أصوات تنعق بالمدنية والتحضر ، والتمثل بالغرب المتمدن ونطبق طرقهم في تربية أولادنا، وطريقة إدارة الأسر، ويتنازع الزوجان من تكن له القوامة ، ومن تكن له الكلمة العليا ، والسيطرة التامة ، كأنها حرب ضروس بين قوتين عظميين تتنازع فيما بينها على أمر عظيم، لا كيان قائم على المودة والرحمة.

ولم يكتفوا بذلك فقد جاءوا بمن يخالفونا في الدين والمعتقد ، والمبادئ، والثقافة إلى بلادنا ، فأنشأوا لهم المدارس والجامعات بجحة التمدن وإلحاقنا بركب الحضارة ، أي حضارة في البعد عن المنهج الصافي ، والعقيدة الربانية ، وإقصاء المنهج الإلهي الذي حفظه الله لنا في قرآنه منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام؟ هم لا يرون من حضارتهم إلا بريقها ، ولا من تمدنهم إلا ما يظهره لنا إعلامهم ، وتتشدق به أفواههم ، غير عابيئن بالآثار التي تدمر أولادنا وأسرنا أخلاقيا ، وسلوكيًا ، وعقديًا.

ولم يقف الأمر عند المدارس الغربية في بلادنا والتي جعلوا من تطبيق طرائقهم والسير على ركبهم معلمًا من معالم الرقي والتحضر، كل ذلك مع

بعدها كل البعد عن التعاليم الإلهية ، ومضاضاتها لها في كثير من المواطن، لذا نجد ظهور الالحاد في فئة الشباب أكثر من غيرهم.

ومما زاد الأمر سوء تلميع وإلقاء الضوء على بعض المنحرفين أخلاقيا ، وجعلهم قدوة في المأكل والمشرب وطريقة الملبس ، ومن لا يقلد يتصف بالتخلف والرجعية ، حتى ظن المتمسكون بدينهم القويم وسنة أنبيائه- الكرام- أنهم غرباء في أوطانهم ، إلى الله المشتكى ، والله -تعالى- نرجو أن يعيننا في الحفاظ على أولادنا في هذا العصر الذي أصبح الحصول فيه المعلومات بضغطة رز،وتيسرت فيه أسباب الانحراف ،حتى دخل بيوت المسلمين.

فإذا تمسكنا بديننا ، ورجعنا إلى هدي قرآننا ، واحتذينا بالأمثلة المشرفة النابضة بالطاعة والانقياد لله-تعالى- في كل حركة وسكون، وتمثلنا بأمهات أنبيائنا في كيفية تعهدهم لأولادهم، وتربيتهم لهم - وإدارتهم لشؤون أسرتهم، وطاعتهم لأزواجهم، ومدى المصاعب التي لاقوها، والابتلاءات التي ابتلوا بها والتي كان من شأنها أن تعصف بحايتهم وتدمر أسرهم ، وكيف عالجوها وتعاملوا معها ، نستطيع بحول الله-تعالى- وقوته وضع أولادنا على الطريق المستقيم الذي لن يضلوا بعده أبدًا ،طريق الله وسنن أنبيائه الكريم، والحفاظ على أسرنا في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، هكذا ينبغي أن تكون القدوة ،في زمن الغربة التي نحن فيها الآن ،نسأل الله العفو والعافية.

النتائج

من خلال معايشتي لهذا البحث قد وفقني الله- تعالى- في الوصول لبعض النتائج، منها:

١. الصور الأسرية التي عرضها القرآن الكريم(متمثلة في أسرة إبراهيم عليه السلام) كنموذج أسري فريد ، تؤكد أن قرار تكوين الأسرة لابد من أن يكون قائما على النهج الرباني خروجًا من الفردية التي يمكن أن تسيطر على الإنسان.

٢. الأسرة من أقوى المؤسسات المؤثرة في سلوكيات الفرد، فهي التي تتولى تكوين شخصيته، وتوجيه سلوكه.

٣. سلامة المجتمع، وقوة بنيانه، وتقدمه وازدهاره مرتبط بسلامة أفراده.

٤. صلاح الآباء مقدمة أساسية لصلاح الأبناء الذين يتحملون المسؤلية – بالدرجة الأولى- عن سلامة فطرتهم، لما يملكون من أثر كبير في تعليمهم وتوجيههم.

٥. بر الوالدين فرض عين، ولا يختص بكونهما مسلمين، بل حتى لو كان كافرين يجب برهما، والإحسان إليهما، مالم يأمرا بشرك أو ارتكاب معصية(١)

٦. أهل الحق والحكمة الحريصين على صلاح أنفسهم، وصلاح أبنائهم، ودوام الحق في الناس، أن يوصوا أبناءهم بالثبات على التوحيد.

٧. أهمية الحوار في تنشئة الأطفال تنشئة تربوية سليمة .

---

(١)الموسوعة الفقهية الكويتية (٨/٦٤،٦٥).

٨. أهمية الدور الاجتماعي للأسرة في إرشاد المجتمع ، بنشر فضائل الأخلاق ، ومحاربة الرذائل.

٩. قوة وضعف المجتمع يقاس بناء على تماسك الأسرة، أو ضعفها، وصلاح المجتمع، أو فساده يتعلق بالأسرة.

فهرس المصادر والمراجع

١- أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، لكرم عبد العال، الطبعة : الأولى، الناشر: مؤسسة الرسالة ، بيروت، (١٩٨٨م).

٢- أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ جزيرة العرب، سيرة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، وتاريخ حرم الله الآمن، للدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود، والدكتورة/ وفاء محمد رفعت جمعة، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر .

٣- الأساس في التفسير، لسعيد حوى، (ت: ١٤٠٩هـ)، الناشر: دار السلام- القاهرة، الطبعة: السادسة، (١٤٢٤هـ).شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ.

٤- الأسرة المسلمة في ظل التغيرات المعاصرة، لرائد جميل عكاشة ، ومنذر عرفات زيتون،، الناشر: دار الفتح للدراسات والنشر، (١٤٠١هـ، ١٩٨١م).

٥- الإكليل في استنباط التنزيل، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ، (١٤١٨هـ)..

٧- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، (١٤٢٠هـ).

٨- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى،(١٣٧٦ هـ، ١٩٥٧م)،

٩- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، لمحمد الطاهر ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، (١٩٨٤ هـ).

١٠- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد ابن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت..

١١- تفسير الشعراوي – الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (١٩٩٧م).

١٢- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

١٣- تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين

شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ.

١٤- التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

١٥- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، لمحمد بن محمد بن محمود، أبي منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٦- تفسير المراغي ، لأحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م.

١٧- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للدكتور/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ،(١٤١٨ هـ).

١٨- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت: ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨).

١٩- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧).

٢٠- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور (ت: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٢١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، (الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م).

٢٢- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠ م).

٢٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري،لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة ،الطبعة: الأولى،(١٤٢٢هـ).

٢٤- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ

٢٥- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة – الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٢٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت:

٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة – المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٢٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياءلأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٢٨- الدر المنثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

٢٩- درج الدرر في تفسير الآي والسور، لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق وليد بن احمد بن صالح الحسين- إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة، الطبعة: الأولى، (١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م).

٣٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٣١- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي

٣٢- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥ هـ.

٣٣- سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.

٣٤- شأن الدعاء، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، الناشر: دار الثقافة العربية، الطبعة: الأولى،(١٤٠٤ هـ ،١٩٨٤م)، الثالثة،(١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢م).

٣٥- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م).

٣٦- صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٣٧- عوامل استقرار الأسرة في الإسلام، لرشا بسام إبراهيم زريقة، إشراف/ د/ جمال أحمد زيد الكيلاني، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الفقه التشريعي في جامعة النجاح الوطنية نابلس- فلسطين، (٢٠١٠م).

٣٨- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ).

٣٩- الفائق في غريب الحديث والأثر، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية.

٤٠- في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.

٤١- فيض الباري على صحيح البخاري، (أمالي) محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي (ت: ١٣٥٣هـ)، المحقق: محمد بدر عالم الميرتهي، أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية بدابهيل (جمع الأمالي وحررها ووضع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥).

٤٢- قصص الأنبياء، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: مطبعة دار التأليف – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م).

٤٣- قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى، وآخرون، الناشر: دار الجيل- بيروت.

٤٤- القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء، لعماد زهير حافظ، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، إشراف/د/ أبو ضيف مجاهد حسن.

٤٥- القول المبين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١هـ)، الناشر: دار الندوة الجديدة بيروت – لبنان.

٤٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ،(١٤٠٧هـ).

٤٧- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، لفاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي

٤٨- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، (١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م).

٤٩- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)،(تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى ، (١٤١٨هـ).

٥٠- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ ، ١٩٩٠).

٥١- مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله ابن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)

٥٢- مع الأنبياء في القرآن، لعفيف عبد الفتاح طبّارة، الطبعة: الخامسة عشر، الناشر: دار العلم للملايين- بيروت، (١٩٨٥م).

٥٣- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية –

سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

٥٤- المعجم الأوسط، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

٥٥- المعجم الكبير،لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

٥٦- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير،لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ،بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٥٧- المفردات في غريب القرآن،لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

٥٨- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٥٩- منهج التربية النبوية للطفل، لمحمد نور بن عبد الحفيظ سويد، الناشر: دار طيبة، الطبعة: الثالثة، (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) .

٦٠- الموسوعة الفقهية الكويتية ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت (١٤٢٧هـ)، (الطبعة الثانية)، الكويت: دار السلاسل.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ)، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ

٦١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي).

٦٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

٦٣- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، لعبد السلام أحمد الراغب، الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.